من الأدب الإيطالي

أنطونيو تابوكي

إيزابيل

21.7.2017

'هديّة رائعة وغير متوقعة'
Le Monde

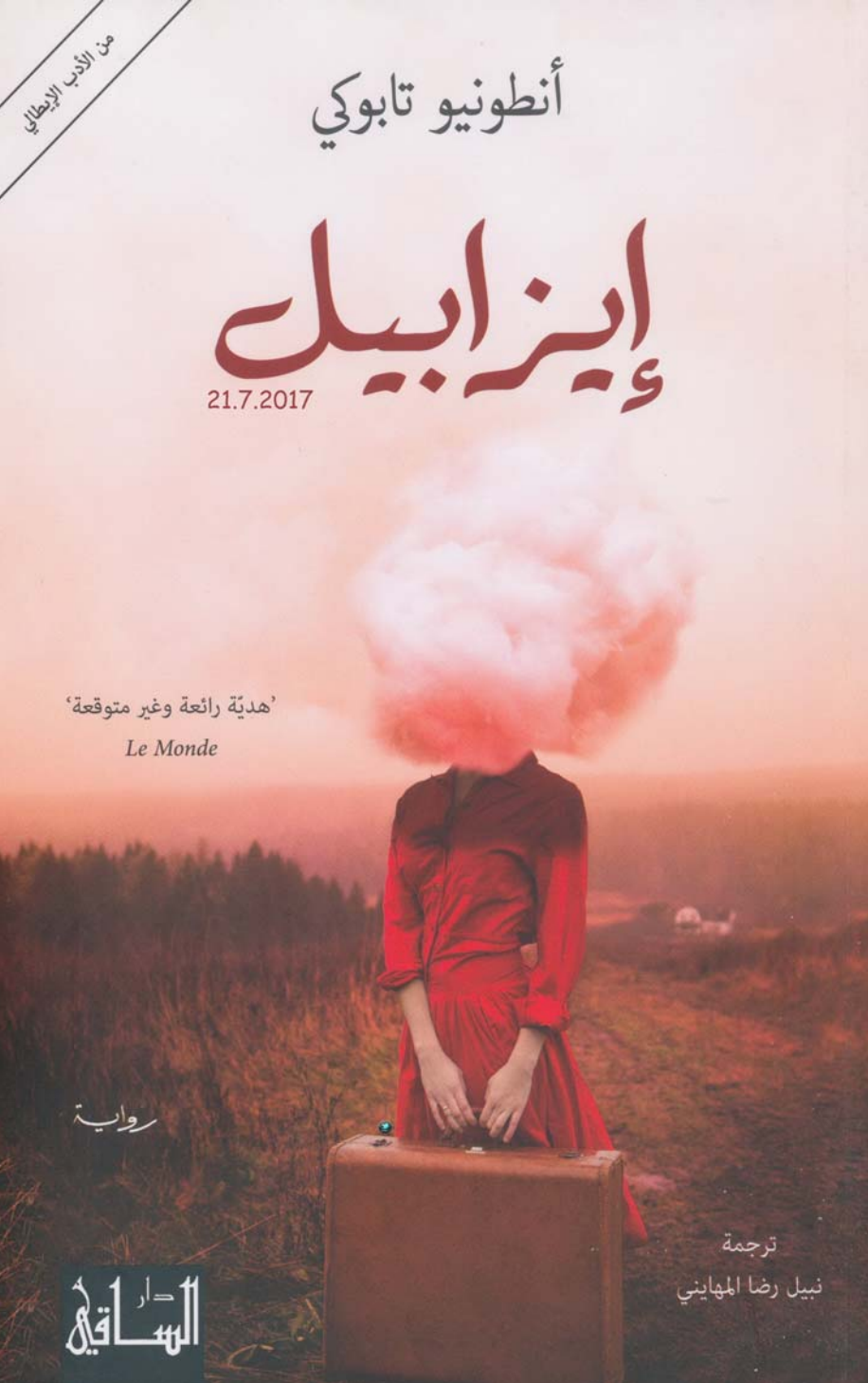

رواية

ترجمة
نبيل رضا المهايني

دار الساقي

أنطونيو تابوكي

إيزابيل

نقلها من الإيطالية
نبيل رضا المهايني

دار الساقي

إيزابيل

صورة الغلاف للفنانة أليسيا سالفاج
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

Antonio Tabucchi, *Per Isabel*, Giangiacomo Feltrinelli Editore Milano, 2013
© Antonio Tabucchi 2013
All rights reserved

الطبعة العربية
© دار الساقي 2016
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-915-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033-6114
هاتف: 442 866 1 961+، فاكس: 443 866 1 961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

في فرضيّة الماندالا[1]، قد أهدي هذا الكتاب
إلى امرأةٍ في دائرةِ استحضار الذكريات.
أمّا في الفرضيّة الدنيويّة فإنّي أهديه إلى صديقتي تيكس
وهذا ليس اسمها في الواقع، لكنّي به أناديها،
وأهديه معها إلى الصديق القديم سيرجو.

---

١ ماندالا تعني باللغة السنسكريتية "دائرة"، ويقصدون بها رمزاً روحياً أو دينياً، بوذياً وهندوسياً، يمثّل الكون وطريقةً للوصول إلى الحقيقة. وتعتبر الماندالا أيضاً دليلاً روحيّاً يساعد على امتلاك الإنسان حيّزاً مقدّساً ومكاناً مناسباً للتأمّل. تكون الماندالا في أغلب الأحيان أيقونةً على شكل هندسي مربع له أربعة أبواب في داخلها دائرة ونقطة مركزية. (م)

"من يدري، فلربّما كانت للأموات عادات أخرى."

سوفوكليس، أنتيجون

المحتويات

تبرير على شكل ملاحظة ١١

١ – الدائرة الأولى: مونيكا. لشبونة. استعادة الذكريات ١٣

٢ – الدائرة الثانية: بي. لشبونة. اتّجاه ٣٧

٣ – الدائرة الثالثة: تيكس. لشبونة. استيعاب ٤٧

٤ – الدائرة الرابعة: العمّ توم. ريبوليرا. ترميم واستعادة ٥٩

٥ – الدائرة الخامسة: تياغو. لشبونة. صورة ٧١

٦ – الدائرة السادسة: ماغدا. راهب. ماكاو. رسالة ٨٣

٧ – الدائرة السابعة: الشبح الذي يسير. ماكاو. زوال ١٠٣

٨ – الدائرة الثامنة: ليز. شافيير. جبال الألب السويسريّة. توسّع. ١١٣

٩ – الدائرة التاسعة: محطة الريفييرا. تنفيذ. عودة. ١٢٩

ملاحظة حول "إيزابيل" ١٤١

تبرير على شكل ملاحظة

هواجسٌ خاصّة وندمٌ شخصيّ ينخره الزمان ولا يغيّره: كما تصقل مياهُ النهرِ حصى قعرِه، ثمّ أوهامٌ وتخيلاتٌ متضاربة وتخلّفٌ عن الواقع: هذه هي مجتمعةً محرّكات هذا الكتاب. رغم أنّي لا أنكر تأثير ذلك الراهب الذي شاهدتُه بثيابه الحمراء ذات ليلة من ليالي الصيف وهو يرسم لي برماله الملّونة ماندالا الضمير على حجرٍ متعرٍّ أصمّ. هناك أيضاً تأثيرٌ آخر أحدثته قراءتي في تلك الليلة بالذات لمقالة قصيرة كتبها هولديرلين[1] وكنت أحملها منذ شهر في حقيبتي دون أن تتاح لي أبداً فرصة قراءتها. وهذه هي كلمات هولديرلين التي وضعتُ تحتها خطاً تلك الليلة قبل أن يكمل القمر دورته الأخيرة:

> إنّ ذبول الزمان على إيقاع مأساويٍّ معتدل قد لا يتعلّق موضوعه بالقلب بل يتبع بغلوٍّ شديد ضغطَ روح الزمان ويظهر بعدها بطريقةٍ وحشيّة، إنّه روحُ الأيّام التي لا توفّر أحداً من البشر، روحٌ قاسية عنيفة لأنّها روح

١ Johann Hölderlin (1770–1843) شاعر غنائي ألماني، اقترن اسمه بالحركة الرومانتيكية وساهم في تطوير الفكر المثالي الألماني. (م)

غضبٍ حيٍّ على الدوام، لا مدوّنةٍ ولا مكتوبة، لأنّها روح عالم الأموات.

قد يثير الفضول كون هذا الكاتب الذي تجاوز الخمسين ونشر كثيراً من الكتب مازال يشعر بضرورة تبرير المغامرة في كتاباته. هذا ما يثير فضولي أنا أيضاً. لأنّي لم أجد بعد على الأرجح حلاً لمعضلةِ هل هذا شعورٌ بالذنب إزاء العالم أم أنّه قصورٌ بكلّ بساطة في التعامل مع الحزن والحداد. هناك بالطبع فرضيّات أخرى لا بدّ أنّها مقبولة. لكن كان عليّ في تلك الليلة الصيفية أن أطير بخيالي إلى نابّولي لأنّ قمراً بدراً كان يسطع في تلك السماء البعيدة. وكان قمراً أحمر.

أ. ت.

١

الدائرة الأولى

مونيكا. لشبونة. استعادة الذكريات

لم يسبق لي في حياتي كلّها أن ذهبت إلى تافاريز. تافاريز هو أفخم مطعم في لشبونة، فيه مرايا من القرن التاسع عشر وكراسٍ مخمليّة، فيه مطبخ عالميّ إلى جانب المطبخ البرتغالي التقليديّ المعروف بطعامه اللذيذ المطبوخ بذوقٍ رفيع. فإذا طلبتَ هناك مثلاً طبق المحارّ والخنزير، كما يفعلون في آلينتيجو[1]، فإنّهم يعدّونه لك كما لو أنّه طبق باريسيّ. هذا ما قيل لي على أقلّ تقدير. لأنّي لم أذهب إلى هناك البتّة. سمعت عنه فقط. ركبت الباص حتّى محطّة الإنتيدينته. كانت الساحة ممتلئة بالمومسات والقوّادين. كانت الظهيرة تشرف على النهاية، وقد وصلت قبل الموعد. دخلت إلى مقهى قديم أعرفه، مقهى فيه طاولات بلياردو، فبدأت أتابع الألعاب. كان هناك رجل عجوز فقد ساقه وكان يلعب وهو يستند إلى عكّاز، كانت عيناه فاتحتين وشعره أبيض أجعد، وكان يسجّل الأهداف بسهولة شربِ كأسٍ من الماء، وهكذا تغلّب على كلّ الحضور وجلس على الكرسيّ وهو يضرب على بطنه كما لو أنه يحثّه على الهضم.

"هل تريد أن تلعب يا صديق؟" سألني.

قلت: "لا، لأنّي لا بدّ أن أخسر أمامك، أمّا إذا رغبت فيمكننا أن نلعب على كأس من نبيذ بورتو، فأنا أشعر بالحاجة إلى احتساء كأس آبيرتيف، وإذا كنت تفضّل فأنا على استعداد لتقديمه لك".

---

١ منطقة جنوبي البرتغال.

نظر إليّ مبتسماً، وأضاف: "لهجتك غريبة، هل أنت أجنبيّ؟".

"نوعاً ما"، أجبت.

"من أين أنت؟" سألني.

"من نواحي الشعرى".

فقال: "لا أعرف هذه المدينة، في أيّ بلد هي؟".

أجبت: "في الدبّ الأكبر[1]".

"حسناً، إنّه واحد من هذه البلدان الجديدة التي نسمع عنها الآن في هذا العالم"... ثمّ حكّ ظهره بعصا البلياردو، وسألني: "وما اسمك؟".

"اسمي فاكلاو"، أجبته، "لكن هذا اسمي عندما عمّدوني بعد الولادة، أمّا أصدقائي فيسمّونني تاديوس".

استعاد هيئة الريبة وتصنّع ابتسامةً عريضة وقال لي: "إذن فأنت معمّد، أنت مسيحيّ إذن. إنّي أنا من سيقدّم لك الشراب ضيافة، ماذا تريد أن تشرب؟".

أجبت بأنّي أريد نبيذ بورتو أبيض، فنادى على النادل.

"فهمت ما الذي ينقصك"، تابع الرجل الصغير حديثه، "تنقصك المرأة، إمرأة أفريقيّة جميلة صبيّة في الثامنة عشرة من العمر، كلفتها قليلة، شبه عذراء، وصلت البارحة من الرأس الأخضر".

"لا، شكراً"، أجبته، "يجب أن أغادر بعد قليل، سأحاول استئجار تكسي فعندي موعد مهمّ هذا المساء، وليس عندي وقت للنساء في هذا الوقت".

---

١ كوكبة الدبّ الأكبر La constellation du Grand Chien

نظر إليّ بنوعٍ من الحيرة. "هاه، وماذا تفعل إذن في هذه المنطقة؟".

أشعلت سيجارة والتزمت الصمت، ثمّ قلت: "إنّني أبحث عن امرأة أنا أيضاً، وأريد أن أعرف أخبارها، وقد توقّفتُ هنا بالصدفة لأكسب بعض الوقت لأنّي على موعد مع سيّدة يمكن لها أن تزوّدني ببعض المعلومات عن تلك المرأة وأريد أن أسمع ماذا يمكن أن تحكيه عنها. لقد حان وقت ذهابي الآن، أرى أنّ هناك تاكسي جاهزة في الموقف، ومن الأفضل أن أستعجل".

انتظرَ لحظة، ثم قال لي: "ولماذا تبحث عن تلك المرأة، هل تشعر بالحنين إليها؟".

"ربّما"، أجبته، "لنقل إنّني فقدت آثارها وجئت خصّيصاً من الدبّ الأكبر لأبحث عنها. أريد أن أعرف المزيد عنها، ولهذا عيّنتُ الموعد".

"وأين موعدك هذا؟" سألني.

"في أفخم مطعم في لشبونة"، أجبت، "إنّه مكان مزيّن بالمرايا والكريستال، لم يسبق لي أن زرته، وأعتقد أنّ أسعاره باهظة. على كلٍّ لست أنا من سيدفع. فماذا تظنّ يا صديقي، إنّني هنا في إجازة ولا أملك في جيبي إلاّ شيئاً من الفكّة، لذلك فمن المستحسن قبول الدعوات".

"هل هو مكان فاشي؟" سألني العجوز.

"لا أعرف ماذا أقول"، أجبت، "والحقّ أنّني لم أفكّر في الأمر أبداً من هذه الزاوية".

نهضت بسرعة وأنا أحيّيه ثمّ خرجت. كانت التاكسي لا تزال واقفةً في مكانها. ركبت السيّارة وقلت: "مساء الخير، إلى تافاريز من فضلك".

تعارفنا، أنا وهي، في معهد "إسكرافاز دو آمور ديفينو" في لشبونة. كنّا في السابعة عشرة من العمر. كانت ايزابيل أسطورة بالنسبة لكلّ من في الصفّ، لأنّها جاءت من "الثانوية الفرنسية". في ذلك الوقت كانت الثانوية الفرنسية موئل المعارضة، يدرّس فيها كلّ الأساتذة الذين لا يجدون مكاناً لهم في الثانويات الحكومية بسبب آرائهم المعادية للفاشيّة، كما كان الذهاب إلى الثانوية الفرنسية يعني التعرّف إلى العالم والدنيا، والقيام برحلات إلى باريس، والتواصل مع أوروبّا. أمّا نحن فقد جئنا من الثانوية الحكومية، خراء، والعفو على هذا التعبير، كنّا ندرس دستورَ الهيمنة السالازاريّة[١] وأنهار البرتغال ونُجزّئ النشيدَ الوطنيّ في أجزاء غبيّة، أمّا ملحمة أوز لوزياديز[٢]، وهي عبارة عن قصيدة بحريّة، فكانت تُدرَّس كأنّها عن معركة أفريقيّة. ففي ذلك الوقت كانت توجد المستعمرات، ولم تكن تسمّى مستعمرات بل ما وراء البحار. اسم جميل، أليس كذلك؟ كان هناك أناس اغتنوا من ما وراء البحار هذه، وعليّ أن أقول إنّ هذا كان يجري بصورة طبيعيّة في عائلات الفتيات المنتسبات إلى المعهد، كنّ جميعاً من

١ نسبةً إلى أنطونيو سالازار، الدكتاتور الذي حكم البرتغال بين 1932 و 1968. (م)

٢ *Os Lusíadas* ملحمة شعريّة من تأليف لويز فاز دي كاموي نشرت عام 1572 واعتبرت أهم عمل في الأدب البرتغالي. (م)

أنصار سالازار المتشدّدات الجريئات بل الفاشيات. أمّا آباؤنا فلا، أعني والديَّ ووالديْ ايزابيل، وربّما كان هذا سبباً في شدّ أواصر الصداقة بيننا، أي بسبب تلك الهويّة المشتركة بين عائلتينا.

كانت عائلتها عائلةً قديمة من نبلاء البرجوازيّة، ولا علاقة لهذه بالسالازاريّة، عائلة على طريق الانهيار تملك عقارات في الشمال من نواحي آمارانتهْ حيث يصنعون أشكالاً من أغرب أشكال الخبز، لكنّها كانت عائلة، كما قلت، دون مالٍ ودون سلطة، أمّا عقارات الشمال فقد عهد بها إلى مستأجرين أو وسطاء ولم تكن تدرّ شيئاً. قضينا سويّة، أنا وايزابيل، بعض عطل الصيف في بيتهم في آمارانتهْ. لم يكن بيتاً بالمعنى الحقيقيّ، بل برجاً من الغرانيت يعود للقرون الوسطى وكان مليئاً بأشياء تذكاريّة وصناديق مختلفة ويطلّ على النهر، لكنّنا كنّا سعداء. في ذلك الوقت كانت فصول الصيف تنقضي جميلة. كانت إيزابيل تعتمر قبّعةً من القشّ جعلت وجهها البيضويّ أجمل ممّا كان يومَ وضعت قبّعةً مضحكة أهداها إياها أحد أقربائها عندما عاد من رحلة إلى توسكانا[1]. كانت ايزابيل ترسم أيضاً. بل كانت على قناعة بأنّها قد تصبح رسّامة. كانت ترسم نوافذ؛ نوافذ بمصاريع مغلقة ونوافذ بمصاريع مفتوحة، نوافذ عليها ستائر ونوافذ عليها شبكات من حديد، المهمّ أنّها نوافذ مثل نوافذ منطقة "دوورو ومينهو"[2] ذات المصاريع الخشبيّة وستائر الكتّان الفخمة. لكنّها لم تكن تضع أبداً

١ توسكانا هي من مناطق وسط إيطاليا، عاصمتها مدينة فلورنسة. (م)

٢ من مناطق البرتغال الشماليّة القديمة، وهي من جبال الغرانيت المطلّة على نهرين بالاسم نفسه. (م)

في لوحاتها صوراً بشرية، لأنّها تفسد سحر الغموض وروعة الأسرار كما كانت تؤكّد وتقول لي: "ألا ترين معي أنّ النافذة المرسومة تبقى ساحرةً، غامضة المعاني، بهيّةً عندما لا يوجد أحدٌ في الصورة. أمّا إذا رسمتُ شخصاً معها فإنّ جلال الأسرار يتلاشى بسرعة؟ وهذا ما حدث لي مع بيطريٍّ آمارانتهْ. كانت له لحية مشذّبة (سكسوكة) وكان يضع شبكة على رأسه ليحافظ على تسريحة شعرة عندما ينام. تصوري أنّه كان يقف قرب النافذة ويجري تمارينه الرياضيّة، وقد أطلّ البارحة على النافذة عندما كنت أرسم فتصنّع أنّه لا يراني لكنّه كان يراني وهو يرفع عينيه نحو السماء بنظرة استلهام، ومن الواضح أنّه كان ينتفخ زهوّاً ظنّاً منه أنّه سيدخل في لوحتي التي كنت أرسمها، لكنّي نلت منه ولم أضعه في لوحتي".

كنّا نخرج بعدها ونتمشّى. كان النهر يشكّل في ضاحية قريبة من آمارانتهْ مضائق صغيرة تتجمّع فيها المياه على شكل مستنقع تتكاثر فيه الضفادع. كنّا نقضي ساعات كثيرة من الصباح ونحن نصيد الضفادع، علماً أنهم لا يعرفون كيف يصيدون الضفادع في البرتغال، لأنّهم لا يأكلونها، ولم يخترعوا طريقة شبيهة بطريقة الصغار في قنص السحالي. كنّا نأخذ قصبة طريّة ونعقد عقدة ثمّ نقرّب حلقة العقدة من رأس الضفدع، وما إن تتحرّك لتقفز حتّى نحكم العقدة حول رأسها ونأخذها. وبما أنّه لم يكن هناك وقتها أكياس بلاستيك، كنّا نحضّر حقيبة صغيرة من الشبك من النوع الذي يُستعمَل للتسوّق، فكانت الضفادع تمدّ رؤوسها من خلال ثقوب الشبك. كان منظرنا رائعاً عند عبورنا آمارانتهْ، أنا بالبنطال وايزابيل بقبّعة القشّ الفلورنسيّة،

ونحن نحمل شبكةً مليئةً بالضفادع. كان الناس يظنّون أنّ بنا مسّاً من الجنون، وكان هذا يروق لنا، كما هو الأمر في ذلك العمر.

في المساء كنّا نذبح الضفادع، وكانت هذه وظيفتي، لأنّ ايزابيل كانت ترفض. كان يجب قطع رأس الضفدع بضربة سكين حاسمة، وكانت الضفادع تتخبّط لبضع دقائق وهي مقطوعة الرأس حتّى تخور قواها وتنهار. "اسمعي"، قالت لي ايزابيل، "إذا قتلوني ذات يوم فإنّي سأفعل نفس الشيء، سأرفس بقدميّ في الهواء. قد لا يمكن قطع رأس الشخص، لكن يمكن شنقه، هذا نفس الشيء، أربع ركلات في الهواء ثمّ... مع السلامة جميعاً". كنّا نطبخ الضفادع على الطريقة البروفنساليّة، كما يروق لإيزابيل، لأنّها زارت آرليس في فرنسا مع الثانويّة الفرنسيّة وقدّموا لهنّ هناك الضفادع المطبوخة على الطريقة البروفنساليّة مبهّرةً بالثوم والبقدونس، وقالت إنّه ألذّ طبق في العالم. لكنّنا سرعان ما ضقنا ذرعاً بتناول الضفادع على الطريقة البروفنساليّة. فتلك الفخيذات المزعجة، البيضاء الجرداء، الصغيرة الناعمة الرقيقة، تكاد تكون بلا طعم ولا مذاق، بينما كان آخرون في العائلة يتناولون الخروف المشويّ والحساء الجافّ[1]. في ذلك العمر تكون الشهيّة قوية... وسرعان ما يجوع المرء، رغم أنّ من السهل عليه دائماً أن يتخيّل أنّ طبقاً أكله ذات يوم في منطقة بروفنس هو أسطورة من أساطير الطعام. لهذا بدأنا نطلق الضفادع في الحديقة، فامتلأت هذه بها وسرحت في كلّ أنحائها: بين الأعشاب، وبين الشجيرات، وفي حوض الأسماك الحمراء وبين كتل القصب.

١ sopa seca طبق من الشعيريّة الناعمة بصلصة وتوابل تقليدية. (م)

لحسن الحظّ أن والديْ إيزابيل كانا شخصين مرحين، ولم يقلقا بسبب ذلك الهجوم بل بقيا على ما هما عليه من بهجة وبِشر وتواضع وتفهّم الأمور. لكنّهما ماتا في حادث سير، بيد أنّ هذه قصّة أخرى، لا بل إنّها القصّة نفسها. كنّا نذهب في يوم الجمعة إلى مدينة بارسيلوس، وفيها أجمل سوق في المنطقة. قد لا تستطيع أن تتخيّل كم كانت أسواق الضواحي جميلة في ذلك الحين، أو ربّما بوسعك أن تتخيّل. كنّا نستقلّ في الصباح الباكر الحافلة المتّجهة إلى براغا ونأخذ من هناك حافلةً أخرى تقودنا إلى بارسيلوس لنصلها وقت الظهيرة، أي في وقت مناسب لكي نجول بين المصنوعات الآجريّة، ففي بارسيلوس يصنعون كما تعلم ديكةً ملوّنةً من الآجرّ، وهي رمز البرتغال، فضلاً عن أشياء أخرى كثيرة من الفخّار، مثل الدمى والأشخاص المشهورين ومجسّمات عن ولادة المسيح والفرق الموسيقيّة والقطط والأباريق والصحون، ثمّ كنّا نذهب بعدها للغداء.

كنّا نختار دائماً مطاعم شعبيّة مزدحمة بزبائن السوق وباعته يأتون من أنحاء المينهو ويشتري بعضهم دجاجة وبعضهم الأخر إوزّة أو بقرة، وكان منظر السماسرة بديعاً، يضعون مناديل حول أعناقهم ويحتسون النبيذ الأخضر. كانوا رائعين ويتصرّفون على مائدة الطعام كما يتصرّفون وهم في السوق، أي أنّهم كانوا يصرخون ويتنازلون بالأذرع ويتعرّقون. كان الوقت حارّاً في بارسيلوس وكانت تختلط في المطعم روائح الطعام مع نتن الحيوانات الآتية من الساحة. كان هذا أمراً جديداً عليّ وعلى ايزابيل لأنّنا كنّا نقضي أيّام السنة عادةً في مدينة مثل لشبونة، لذلك كنّا ننفعل ونتحمّس ونُفتن لمرأى السماسرة،

ونرغب بشراء شيءٍ ما. ذات مرّة اشترينا خروفاً. كان حيواناً وديعاً لونه أسود وأبيض، خطمه مبقّع وقدماه ناعمتان، أخذناه إلى البيت معنا في الباص ووضعناه في سلّة وقدّمنا له الحليب لبضعة أيّام من الزجاجة بواسطة المصّاصة، لأنّه لم يكن قد فُطم بعد. وضعناه في الحديقة بعد أن صنعنا له كوخاً من القشّ وأوراق الشجر، وكنّا نأخذه معنا إلى السوق مربوطاً برسن عندما نذهب لنتسوّق في آمارنْته. ولن أصف لك كيف كانوا ينظرون إلينا في البلدة، أنا بالسروال وإيزابيل بتلك القبّعة الفلورنسيّة، ولم يكن معنا هذه المرّة شبكة بالضفادع بل خروفٌ بالرسن. والأدهى أنّ إيزابيل كانت ترغب بشراء الخبز الذي يصنعونه في آمارانتهْ على شكل عضو الذكر، وكانت الخادمات يشترين ذلك الخبز لتقديمه مع المقبّلات، لكنّنا كنّا نشتريه للتباهي بشرائه وكنّا نأخذ منه سلّةً مليئة: فضيحة. كان الجميع ينظر إلينا، حتّى إنّ الطبيب البيطريّ المغرم بتمارينه الرياضيّة انقطع عن إطلالته المعهودة من نافذته. يعني كان أمراً ممتعاً.

ثمّ انتهت كلّ فصول الصيف. انتهت لأنّنا أصبحنا في الجامعة، أو بالأحرى لأنّ ايزابيل مات أبواها. ماتا في حادث سير كما أسلفت، على الطريق المؤدّية إلى "بافوا جوفيرزيم"، بعد الغداء، بعد أن أكل أبو ايزابيل كثيراً وشرب أكثر. ولم يُعرف على من الحقّ، لأنّ الصدام كان مجابهة. لكنّي أظنّ أنّ أبا إيزابيل كان قد غالى في تعاطي المشروب، وكان مغرماً بالشراب، إنّي أعرفه. لم يموتا في الحال، بل بقيا يومين أو ثلاثة ثمّ ماتا سويّة، هو وزوجته. هذا مضحك، أليس كذلك؟ الوقوع في غيبوبة سويّةً ثمّ الموت في الوقت نفسه لأنّ كلّ

شيء قد انتهى، توقّف القلب عن النبض فنزع الأطبّاء الأنابيب. لكن هذا الذي حدث.

قضينا أنا وايزابيل ثلاثة أيام وثلاثَ ليالٍ في مستشفى أوبُرتو، في وحدة العناية المركّزة. كنّا ننام في صالةٍ جانبيّة صغيرة بالتواطئ مع إحدى الممرّضات، وكان بعض المرضى يدخلون من حين لآخر. "أبي، أبي، هذه أنا"، كانت تقول ايزابيل، "ماما، هل تسمعينني؟ هل تذكرين الضفادع التي كنّا نجلبها إلى البيت في آمارانتهْ، أنا وصديقتي مونيكا؟ اسمعي، سنأتي بها في الصيف القادم أيضاً، استيقظي يا ماما، اخرجي من هذه الغيبوبة اللعينة، أريد أن تبتسمي لي، أن تنصحيني أيّ ملابس أرتدي كما كنت تفعلين، وأن توبّخيني قائلةً parce que je ne suis pas parfaite[1] كما تريدين، إنّي بحاجة إلى هذا يا أميّ".

لكنّ أمّها كفّت عن توبيخها وكذلك أبوها. ماتا سويّةً، كما أخبرتك، في الساعة نفسها تقريباً، وحضّرنا الجنازتين. دفنتهما إيزابيل في مقبرةٍ صغيرة في الريف قرب آمارانتهْ، في بلدةٍ صغيرة وداخل الكنيسة بالذات. شيّعت الجنازتان في يوم جميلٍ من أيّام تشرين الأوّل وكانت الشمس حارّة. كانت إيزابيل ترتدي ملابس زرقاء غامقة، أمّا أنا فكنت أرتدي ثوباً بنّياً جعلني أبدو أكبر منها. عندما عدنا من المقبرة قالت لي ايزابيل: "ألا ترين، لقد ذهبا، ألا تعلمين يا مونيكا أنّ الصيف قد ولّى بضفادعه، ولّت الأعشية في بارسيلوس، ولّت الطفولة، لقد ذهبا، أصبحتُ يتيمة، وأظنّ أنّكِ

---

١ إنّي لست مثاليّة.

أنتِ أيضاً أصبحت يتيمة نوعاً ما". والواقع أنّني بدأت أشعر بأنّي يتيمة بعض الشيء، لأنّ أبويْ إيزابيل كانا أبوين حقيقيّين، وليس مثل أبويّ اللذين لم يكونا كذلك قطّ. لأنّ أبي كان دائماً على سفر بسيّارة المرسيدس- بنز أو للعمل كما كان يقال في بيتنا، وكانت لأمّي صديقاتها والتزاماتها. وهكذا أصبحت يتيمة بعض الشيء. لقد انتهت الرحلات النهريّة، بيت آمارانتهْ القديم، أحلام فصول الصيف: انتهت كلّها.

التقينا بعدها في الجامعة، لكنّ الأمور كانت قد تغيّرت عمّا هي عليه. فقد تسجّلت أنا في كليّة الآداب الكلاسيكيّة، وهذا يعني خياراً محافظاً في معيار التقسيمات الإيديولوجيّة المعمول بها آنئذٍ في جامعة لشبونة. لأنّ طلاب المواد الكلاسيكيّة لم يكونوا يتحرّكون لأيّ سبب البتّة، فهم لا يتجمهرون، بل لا يذهبون حتّى إلى مطعم الطلبة حيث تجري المناقشات عادةً. أمّا إيزابيل فقد تسجّلت في كليّة الآداب الحديثة، ويحقّ أن نقول إنّ الحياة الفعليّة كانت فيها. هناك نجد مثلاً أنّ أحد الأساتذة يدرّس في دورة عن ألبير كامو والوجوديّة، وآخر في دورة عن السورياليّة في البرتغال، بل بدأت هناك تلاوة القصائد من قبل بعض شعراء الحركة المجيدة ولا أذكر أسماءهم الآن لكنّهم كانوا من الشعراء المرموقين، وكان هذا انتصاراً عظيماً وكانت قاعة الاحتفالات تغصّ بالحضور، وأذكر أنّ إيزابيل أصبحت زعيمةً وقتها وبدأت بتقديم الشعراء إلى الطلبة، وقد اضطر بعض الفتية أن يجلسوا على الأرض. لم يكن أولئك الشعراء يتحدثون عن الفاشيّة بصورة مباشرة، فهذا غير ممكن، لكنّ قصائدهم كانت

انشقاقيّة بل وثوريّة نوعاً ما، ثوريّة بين قوسين، لأنّ كلّ شيء كان وقتها بين قوسين.

صعدت إيزابيل على خشبة المسرح وعلى عنقها منديلٌ أحمر، وفي هذا إشارة بالطبع، لأنّه لم يكن مسموحاً حينها استعمال اللون الأحمر، بل كانوا يستعملون ألواناً مشابهة، وكان هذا يرمز إلى شيء ما. بدا لي غريباً أن أجد إيزابيل على خشبة المسرح، وكانت تتحدّث بطلاقة، رغم ما في صوتها من نبرة التوتّر، وبعد أن تلت مذكّرات عن سيرة الشعراء قالت: "ها هما شاعران من الأحرار يشرفّاننا لأنّ الشعر الحرّ ممنوع في هذه الأيّام". وهنا انفجر صوت التصفيق عالياً ثمّ وقف أحد الشاعرين وتلا قصيدةً سوريالّية سخر فيها من القيم البرجوازيّة فبدا أنّ القاعة قد جنّ جنونها، ثمّ وقف الشاعر الثاني وتلا قصيدةً على شرف غارسيا لوركا الذي اغتاله الفاشيست. قد تُضحكنا تلك القصيدة الآن، لكنّ مثلها كان يعتبر آنئذ حدثاً سياسيّاً هامّاً، وأنت تعلم أكثر منّي أنّ البرتغال كان في ذلك الوقت بلداً نسته أوروبّا ونسي أوربّا، لأنّنا كنّا منغلقين ضمن طريق مسدود، في واحد من الأديرة العفنة يحرسه آنطونيو دي اوليفيرا سالازار. كلّ شيء كان يجري كما تجري الأمور في الدير: العرف والعادات والطقوس بل ولقاءات الأولاد في بيت أحدهم، والحفلات المتواضعة الحزينة.

في بعض الأحيان كانت إيزابيل تنظّم في بيتها حفلات خاصّة بموسيقى الفادو[1] البرتغاليّة النبيلة، وهذه أيضاً كما تعلم من تناقضات ايزابيل، فهي كانت تشارك في اجتماعات ثوريّة في الجامعة بينما

١ fado castiço (م)

تقيم في بيتها حفلات فادو نبيلة، لكنّ هذه اللقاءات كانت تعجبني، وكنت أحضرها في بعض الأحيان، وأذكر بعض المناسبات حين أطّلت علينا "تيريزا دي نورونها" التي كانت أسطورةً بالنسبة إلينا، وهي منحدرة من طبقة النبلاء العريقة، وكانت تغنّي بصوتٍ جهوريّ عنيف أصنافَ الفادو القديمة، بينما كانت إيزابيل توقد الشموع الموضوعة في شمعدان على مائدة في الصالون، عليها زجاجة من نبيذ بورتو، بينما كان الجميع ينصتون بهدوء إلى كلمات المغنّية النبيلة التي كانت تضع الشال على كتفها، والجميع يحتفلون حول الشموع ونبيذ البورتو. كان هذا نوعاً من الطقوس، وكان الجميع على وعي بالأمر، بينما كانت الحياة تسير، الحياة خارج المكان. أمّا الحضور في اجتماعات إيزابيل فيبدو أنّهم كانوا لا يدركون شيئاً من هذا.

كانت إيزابيل ترتدي سترةً صوفيّة بلونٍ بنفسجيّ من التي كانت تحيكها لها جدّتها التي بقيت تعيش معها، كانت امرأةً عجوزاً بمثابة مربّيةٍ لها منذ أن كانت طفلة صغيرة، وهي التي عوّضتها عن أبويها، وهي تنحدر من "بيرا باتشا"[1] ومازالت تتكلّم بلهجة قرويّة واضحة رغم أنّها عاشت لسنين طويلة في لشبونة، وهي التي تعرف كلّ شيء عن إيزابيل وكانت قربها خلال سنيّ حياتها الصعبة، كانت دائماً إلى جانبها. لكنّي بدأت على الأرجح أسترسل أكثر ممّا ينبغي، هل استرسلت؟ على كلٍّ هذا لا يهمّ، يمكنك في كلّ الأحوال أن تذهب وتسأل جدّتها، فأنا لا أعرف الكثير عن ايزابيل، وما أعرفه بعد هذا

١ Beira Baixa (م)

الحدّ ما هو إلاّ عن طريق السماع. وقد سمعت عن قصّة الحبّ تلك، لكنّي أكرّر أنّي فقدت آثار إيزابيل.

لقد تهيّأ لي أنّ تلك القصّة كانت سبب خرابها. من هنا بدأ كلّ شيء، أعني بدأت نهايتها. لكنّي أتكلّم بما سمعت. يبدو أنّها تعرّفت إلى فتىً أجنبيّ في الجامعة، ولا أعرف من أيّ جنسيّة هو، أظنّ أنّه كان من الأندلس، ولا أعرف على وجه التأكيد سوى أنّه كانت لديه حقيبة دراسيّة. وقد رأيتهما مرّة مع بعضهما، لأنّهما كانا لا يفترقان. والآن إذ أعيد التفكير أعتقد أنّه كان إسبانيّاً، لكنّي لا أذكر حقّاً، فقد مرّت سنون عديدة. وقد تناولنا العشاء مرّةً في مطعم "توني دوز بيفيز"، وهو ملتقى صغير قرب سالدانها ينفق فيه الزبون قليلاً أو لا شيء تقريباً، طعامه لا بأس به لكنّه وفير، وكانت ايزابيل ترتاده مع فتاها على الدوام. مازلت أذكر تلك الليلة. فإيزابيل كانت منفعلة لأنّ كاتباً مهمّاً كان يجلس إلى مائدة مجاورة مع جميع أعضاء هيئة تحرير مجلّة الروزنامة، وقد اعتادت هيئة التحرير أن تجتمع لدى "توني دوز بيفيز". وكانت المجلّة تعتبر في ذلك الحين نوعاً من الأسطورة، لأنّها كانت تسخر من كلّ شيء ومن كلّ شخص، بل من البلد بالذات ومن مؤسّساته، ومن البرجوازيّين، ومن التقاليد، ومن الاكتشافات البحريّة التي كانت البرتغال تفتخر بها أشدّ الافتخار. كانت مجلّة متهوّرة تتوجّه نحو الشباب وغير المحافظين. عندما رأى الكاتب ذلك الأجنبيّ حيّاه، لا بل نهض وتوجّه نحو مائدتنا. مدّ يده إلينا بحركة ودّيّة. كان قصير القامة بديناً بملامح فلاحيّة، ولا يمكن للمرء أن يقول إنّه ذلك الكاتب المنمّق المعروف، لكن هذا هو

دائماً حال الكتّاب: مخادعون. كنّا نتناول شريحة خبز وعليها بيضة، وكان هذا هو الطبق الأرخص في المطعم، عندما طلب الكاتب منّا أن ننضمّ إلى مائدته. فذهبنا وحملنا صحوننا معنا، لكنّ هيئة تحرير الروزنامة سرعان ما قدّمت لنا صينيّة فيها رزّ بالبطّ وقالوا يجب على الشباب أن يتغذّوا.

بعد ذلك جلس الكاتب وذلك الأجنبيّ وتحادثا عن فيتّوريني[1] والواقعيّة الجديدة الإيطاليّة، وكانت ايزابيل تقول شيئاً ما بين الفينة والأخرى، فهي قد قرأت كتباً مثل رجال وغير رجال[2] وكانت معجبة بالمقاومة الإيطاليّة. أجل، لقد تذكّرت، كان فتى إيزابيل إسبانيّاً وكانت له ملامح أندلسيّة، شعره فحميّ اللون وأنفه حادّ مثل أنوف الغجر واليهود الإسبان. كان يسمّي الفتاة البرتغاليّة "قملة" فاغتنم الكاتب الفرصة في الحال ليقود الحديث نحو ساكارنيرو[3] الذي كان يصف البرجوازيّين بالقمل بل بالبراغيث. وهكذا انتهت الأمسية بنقاش حول الحشرات والحشراتيّة ثمّ بدأ كلّ محرّر من محرّري المجلّة يلصق صفة البرغوث بنشاط معيّن أو بفئة معيّنة من الناس. فسماع المباريات الرياضيّة من المذياع هو برغوثيّ، والتنزّه على

١ Elio Vittorini (1908–1966) كاتب وروائي إيطالي أثّر في الاتجاهات الأدبية الحديثة. (م)

٢ *Uomini e no* من روايات فيتوريني وتعتبر أول رواية تكتب عن المقاومة الإيطالية ضد الفاشية. (م)

٣ Francisco Sá Carneiro (1934–1980) سياسيّ برتغاليّ ورئيس وزراء البرتغال لأقلّ من سنة لأنّه مات في حادث طائرة. ترأس أيضاً الحزب الاشتراكي الديموقراطي. (م)

الشاطئ أيام الأحد هو برغوثيّ، وتناول سمك الباكالا المقدّد هو برغوثيّ، والاعتراف في الكنيسة برغوثيّ، وارتداء البزّات الغامقة برغوثيّ، والإستيقاظ باكراً برغوثيّ، وتناول العشاء في المطاعم الفاخرة برغوثيّ، وكتابة المذكّرات برغوثيّ، وهكذا دواليك، كانت تلك أمسية برغوثيّة. عندما خرجنا سألتني ايزابيل من منّا أشدّ برغوثيّةً، فأجبت في الحال إنّي أنا. وهذا كان صحيحاً. فأنا الأشدّ برجوازيّةً، والأكثر تعلّقاً بالعادات وبالتقاليد. أمّا ايزابيل فكانت قد انطلقت في طريقها، أصبحت أجنبيّة أو كادت، بل إنّها بدأت تصبح غريبةً بالنسبة لي، أي أنّها أصبحت أجنبيّة حتّى بالنسبة لي، أو ربّما لم يعد هناك ما يمكن أن يقال بيننا.

والواقع أنّها لم تكن هي التي حدّثتني عن تلك القصّة التي كانت تعيشها، بل، وكما أخبرتك، كنت أنا التي لملمت بضع شائعات كانت تدور في الجامعة. أعتقد أنّها مختلقة، فألسنة السوء موجودة على الدوام، لكنّها كانت تدور خلال تلك الأعوام الفظيعة بشدّة أكبر. يبدو أنّ الطالب الإسبانيّ كان صديقاً لكاتب بولونيّ وقدّمه لإيزابيل، فنشأت صداقة؛ صداقة بين ثلاثة، وأعتقد أنّ الأمر لم يتعدَّ الصداقة، أي: فطور سفاري في اريسيريا، إجازة الأحد في زورق على التاغو على ألاّ ننقلب برغوثيّين، وأمور من هذا النوع. وأعتقد أنّ إيزابيل كانت تفعل هذا كي لا تصبح برغوثيّة، لكي تبدو امرأةً متحرّرةً كما كانت ترغب أن تكون رغم أنّها ليست كذلك على الأرجح، من يدري. على كلٍّ سمعتُ شائعةً في الجامعة تقول إنّ الأمور تعقّدت معها على ما يبدو. أقول على ما يبدو لأنّي لا أعرف

على وجه التأكيد، وما أعرفه هَمَستْ به إحدى الطالبات في أذني، لكنّ تلك الطالبة لا تعرف عنها إلاّ القليل، ولم تصادقها إيزابيل إلاّ لأنّها شيوعيّة ولكي لا تشعر بنفسها برغوثية. كانت متعصّبةً صغيرة بل ومحافظة مثل كلّ الشيوعيين في تلك الحقبة، وقالت لي إنّ إيزابيل حبلى، لكن لا يُعرَف إن كانت قد حبلت من الإسباني أم من البولونيّ. ثمّ حملتني على الظنّ بأن إيزابيل انتسبت للحزب الشيوعيّ، ولهذا فقد احتجبت عن الناس وبدأت تكتب في جريدة آفانتي باسم مستعار هو "ماغدا" على ما أظنّ، أو شيء من هذا القبيل. "لكن ماذا يمكن لإيزابيل أن تكتب في صحيفة الحزب الشيوعيّ؟" سألتُها وأردفتُ: "ماذا يمكن لها أن تكتب بالطفولة التي عاشتها، بأصولها ونسبها، وبالحياة التي عاشتها على الدوام؟" فأجابتني تلك الحمقاء: "إنّها تكتب نداءات إلى الشبيبة الديموقراطيّة، بل إنّها أصبحت أكبر منظّرة إيديولوجيّة في صحيفتنا، مقالاتها لاسعة كالسياط، مقالات تحريض بل بمثابة تظاهرة فعليّة. يا لها من عظيمة صديقتك تلك، لكنّها الآن في مأزق". غير أنّي فقدت آثار إيزابيل.

كانت تلك الصديقة الشيوعيّة هي التي تزوّدني من حين لآخر بأخبارها، لكنّها ذهبت الآن إلى آنغولا لتحارب إلى جانب حركات التحرير ولم تظهر بعد ذلك. هذا أفضل بالنسبة لها، علماً أنّني لا أذكر اسمها، ربّما كان فاطمة، ثمّ إنّها قالت لي: "هل تعلمين أنّ ايزابيل قرّرت أن تجهض بعد أن هجرها الجميع عدا جدّتها ونحن رفاقها، غير أنّ جدّتها لا تعرف شيئاً عن هذه القصة البائسة". وقد قلت لها: "يبدو أنّك غبيّة بعض الشيء يا صديقتي، فأنا أعرف إيزابيل أكثر

منك، ويبدو لي أنّ هذه القصص التي ترونها عنها هي قصص من تحت الأرض ومن عالمّ السرّية الذي تعيشين فيه، وعليك أن تعلمي أنّ إيزابيل لا تنطوي على روح السرّية والتخفّي، لأنّها فعلت كلّ ما فعلته في وضح النهار، فسحقاً لكِ ولحزبك". لم أرَ ايزابيل بعدها أبداً.

لكنّي رأيت فيما بعد تلك الصديقة الشيوعيّة فقالت لي "إنّ ايزابيل مكتبئة لأنّ مشاكلها سبّبت لها على ما يبدو نوعاً من الاكتئاب، وقد فشلتُ في سماع أخبارها، يبدو لي أنّها ذهبت لتعيش في بلدة صغيرة في الشمال، فهل لديكِ وسيلة لتقفّي آثارها؟ بحثت عنها على رقم آمارانتهْ فأجابتني جدّتها"، وقالت "إنّ ايزابيل ليست هناك وإنّها لا تعرف أين توجد"، ثمّ قالت لي: "مونيكا، عزيزتي مونيكا، إذا عرفتِ شيئاً عن إيزابيل فأخبريني، إنّي قلقة جدّاً، كنت أريد أن أخبر الشرطة لكنّ أصدقاء لها مجهولين كلّموني بالهاتف وطلبوا منّي ألاّ أخبر الشرطة حتّى لو لم تظهر فهي قضيّة حياة أو موت. لذلك فإني أشعر بالكرب والأسى. أريد أن أعرف أخبار حبيبتي إيزابيل. لا أعرف أين هي، ولا ماذا تفعل. أشعر بالموت يمسك بخناقي". وشعرت أنا أيضاً بالموت يرفرف حولي بعد ذلك الحديث على الهاتف. ماذا حدث لايزابيل؟ أين انتهى بها الأمر؟ لماذا لا تظهر؟ ثمّ هل كانت حقيقيّة تلك القصّة التي روتها لي الصديقة الشيوعيّة؟ إذا كانت حقيقيّة فإنّ ايزابيل تحتاج من يساعدها ويكون بجانبها ويقول لها كلمات مواساة تطمئن قلبها. وأنا الوحيدة القادرة على مثل هذا. أنا صديقتها القديمة الحقيقيّة التي تعرفها منذ الطفولة. كيف يمكن لها أن تكون قد نسيت

كلّ هذا، نسيت الصداقة وليالي الصيف في آمارانتهْ، والضفادع؟

وهكذا قرّرت البدء بتعقّب أخبارها والبحث عنها. وتواصلت مع أحد أصدقاء تلك الفتاة الشيوعيّة كان قد سافر إلى أفريقيا. كان فتى أصلع بعض الشيء، طالباً يحمل العديد من الموادّ ولا يداوم على الدروس رغم أنّه من روّاد مطعم الطلبة الدائمين. كان يقوم بنشاطات سريّة، هذا ممّا دعاني لأن أشعر بدهشة حقيقيّة، فكيف يمكن ألاّ تكون الشرطة السياسيّة قد اكتشفت بعد أمره. لكنّ الشرطة السياسيّة التي كانت تبدو على معرفة بمجرى الأمور كانت أيضاً غبيّة بعض الشيء ولم تكن قادرة على ضبط الجامعة، وهذا ما يسّر تفلّت الأصلع من بين يديها. أوقفتُه ذات يوم في مطعم الطلبة. وقفت وراءه وكلّمته كما لو أنّي أتكلّم في الهواء، قلت له: "أنا صديقة لايزابيل. أريد أن أعرف أين انتهت بها الأمور". كنّا نتناول الطعام لنضعه على صواني الخدمة الذاتيّة ولم يحرّك هو ساكناً، يبدو أنّه كان من النوع الذي ألف حياة التخفّي والسريّة، ثمّ إنّه التفت نحو المرأة التي تعمل على الأطباق وقال لها: "لا أحبّ سمك الباكالا المقدّد، أعطيني من ذلك السمك بالأعشاب"، ثم واصل وكأنّه يكلّم النادلة: "إنّ ايزابيل تعاني من بعض المشاكل النفسيّة وهي في مكان خاصّ لا أستطيع أن أبوح لك به، آسف"، فأجبته وأنا أتناول طبقي: "عليك اللعنة". كانت هذه آخر مرّة سمعت فيها شخصاً يتحدّث عن إيزابيل. فبعد أسبوع نشرت صحيفة أخبار اليوم[1] الصباحيّة الواسعة الانتشار هذا الخبر: "أصدقاء ايزابيل كويروز دو مونتي ينعون أن الله اختار إلى حضرته الإلهيّة ابنته

١ Diário de Notícias

المحظيّة ايزابيل وسيقام قدّاسُ سابع يوم في الساعة الحادية عشرة من الغد الثامن عشر من نيسان في كَنيسةً انكارنازو آ كاسكايز[1]".

كان النهار رائعاً غداة ذلك اليوم. سرت على قدمَيّ على طول الخليج وتوقّفت في إحدى المقاهي. فقد وصلت قبل الموعد وكان عليّ أن أنتظر بعض الوقت. كان الخليج ممتلئاً بزوراق شراعيّة جاهزة لخوض المباراة، فسرت مع منعطف البحر، دخّنت سيجارة وفكّرت في إيزابيل، وهيّأتُ نفسي معنويّاً قبل أن أصل إلى انكارنازو، وهي كنيسة تطلّ على أروع منظر في كاسكايز. كان يقف إلى جانب الكنيسة بائع سمك يبيع على عربته ثمار البحر، فاشتريت بعضها وبدأت بقضمها بينما كنت أنتظر جالسةً على مقعد حجريّ. في الحادية عشرة إلاّ ربعاً لاحظتُ أنّ أحداً لم يصل بعد. انتظرت قليلاً وأنا أقضم ثمار البحر ثمّ دخلت إلى الكنيسة. انكارنازو لم تكن كنيسة بمقدار ما هي مصلّى للبحّارة. كانت فيها نذور قديمة وتهيمن على منبرها صورةٌ للعذراء رسمها بحّار خلال رحلاته في أزمنة غابرة. دبّرت نفسي وجلست على مقعد الركوع أنتظر.

في الحادية عشرة وصل الكاهن يرافقه فتيان من خدمة المذبح، وقبل أن يبدأ بإقامة الشعائر خصّني بالقول: "هذا قدّاس اليوم السابع لأختنا العزيزة إيزابيل التي اختارها ربّنا إلى جانبه". لحقتُ به بعد القدّاس إلى غرفته. قلت له: "إنّي يا أبانا صديقة قديمة لايزابيل وأريد أن أعرف كيف ماتت". اتّسعت عيناه بدهشة عارمة وهو ينظر إليّ ويجيب: "لا أعرف أنا أيضاً أيّ شيء عن هذا، لقد عُهد

١ Encarnação, a Cascais

إليّ بمهمّة إقامة قدّاس اليوم السابع، لكنّي لا أعرف كيف ماتت". سألته بعدها: "أوَلا تعرف أين دُفنت، ومن هم أصدقاؤها أولئك؟". "لا، لا أعرف"، أجابني، "لا أعرف حقّاً". قلت له: "لكنّك كنت تعرف إيزابيل؟"، فأجاب: "من المؤكّد أنّي كنت أعرفها، عرفتها مذ كانت طفلة، كما أنّها بدأت خلال السنوات الأخيرة بالمجيء للاعتراف". "وماذا قالت لك"، سألته، فأجابني: "هذا ما لا أستطيع أن أبوح به يا بنيّتي، إنّه سرّ الاعتراف". فقلت له: "لكنّك تعرف كيف ماتت وأين يوجد جثمانها؟". خلع رداءه الكهنوتيّ ونظر إليّ نظرةً حزينة، ثمّ أجاب: "لا أعرف، لا أعرف شيئاً. أخبروني أنّها ماتت وصدّقت ما قيل لي، كلّمني بعض رفاقها في الجامعة وحوّلوا لي هبةً لإقامة قدّاس اليوم السابع، لكنّي لم أرَ إيزابيل ميّتةً ولا أعرف أين دُفنت، ولا أعرف لماذا تسألينني بما أنّ أصدقاءها يعرفون ذلك، ألستِ صديقتها؟". أجبته: "أجل، لكنّها بدأت في المدّة الأخيرة بإقامة علاقات مع أصدقاءِ حياتُهم قليلةُ الوضوح، وأنت تعرف يا أبتاه كيف تسير الأمور في هذا البلد، وهكذا فإنّي لم أفلح في معرفة أيّ شيء عنها".

خرجتُ بعدها إلى خليج كاسكايز. كان قد انقضى منتصف النهار ونيسان يتلألأ. توقّفتُ في أحد المطاعم وطلبت طبق سمك مشويّ. أحضر النادل الطعام وسألني ما إذا كنت أرغب في القيام بجولة سياحيّة إلى فوهة الجحيم. أجبت أنّني لا أحبّ الجولات السياحيّة. لم أسمع شيئاً عن إيزابيل بعدها. سرت شائعات بأنّها انتحرت، لكنّها لم تكن ذات مصداقية، لأنّها صادرة عن أشخاص في الجامعة يعرفون

عنها بمقدار ما أعرف. أمّا الأصلع فقد اختفى، والفتاة الشيوعيّة ذهبت، كما قلت لك، إلى أنغولا. الشخص الوحيد الذي بوسعه أن يخبركَ شيئاً أكثر من هذا هي جدّتها، بريجيدا تيسيرا، المعروفة باسم بي. إن كانت لا تزال على قيد الحياة فلا بدّ أنّها ما زالت تسكن في عنوانها القديم في ترافيسا دا بالميرا، ولا أعرف رقم الشارع، لكنّ بوسع أيٍّ كان أن يدلّك عليه. وأكرّر: هذا إن كانت لا تزال على قيد الحياة. وليس لديّ شيء آخر أضيفه.

٢

الدائرة الثانية

بي. لشبونة. اتّجاه

بما أنّي لم أركَ البتّة في بيت آمارانتهْ، وبما أنّك تدّعي أنّك عرفت إيزابيل، فهذا يعني أنّك عرفتها في وقتٍ متأخّر، أي عندما أصبحت امرأة، رغم أنّها لم تصبح امرأة قطّ بالنسبة لي، بل بقيت طفلة، طفلتي ذاتها. اسمي بريجيدا، بريجيدا تيسيرا، لكنّها كانت تدعوني "بي"، وبقيتُ على الدوام "بي" بالنسبة لها، "بي" كما كانت تدعوني وهي صغيرة وكما بقيتْ تدعوني. "بي"، وما زلتُ أسمع هذا الاسم الذي كانت تناديني به عندما كانت طفلة. وعندما تمرض كانت تهتف: "بي، بي، تعالي إلى جنبي، أريد أن تكوني قربي، أريد بي". عندها كنت أصعد الدرج وأنا أحمل لها دميةً أو عصير البرتقال أو حلوى صنعتها بيديّ. كانت دائماً مريضة في صغرها، كانت تشكو من الربو. وكانت هذه مأساة لأنّ الربو ليس له علاج معروف، إنّه عرَض أكثر ممّا هو مرض، وكان يبدو أنّه لا يمكن عمل أيّ شيء. كان اليأس يستولي على أمّها. لكنّي قمت وبمبادرة منّي باستدعاء طبيب يستعمل الطبّ البديل[1] وهو ابن أحد أقربائي وفتى حاذق يعمل في مستشفى سانتا ماريّا كطبيب عامّ، لكنّه يداوي مرضاه بعد الظهيرة بطريقته الخاصّة. قال لي بعد أن فحصها: "إنّها تعاني من ربو نفسانيّ، فهذه الطفلة تشكو من مشاكل نفسيّة لا أعرف ما هي، لذلك فهي تحتاج إلى طبيب نفسيّ. كلّ مشاكلها عقليّة بحتة". قمت

١ homeopathy

أنا بدور الطبيب النفسيّ فمن يعرفها مثلي لا يحتاج إلى أكثر من ذلك. لم يكن أبوها موجوداً، في ذلك الحين، بل لم يكن حاضراً أبداً لأنّه كان دائماً في باريس. وإذا حضر فوجوده مثل عدمه. وكانت إيزابيل تقلقني بهذا: "بي، هل كتب أبي رسالة؟ بي، هل اتّصل أبي بالهاتف؟ بي، متى سيعود أبي؟". من الواضح أنّها كانت تقلق لغياب أبيها. كانت مولّهةً به مثلها مثل جميع الأطفال في ذلك العمر. وهو رجل مسكين، لا بدّ من تفهّم ظروفه. فأملاك آمارانتهْ تشكّل ديوناً أكثر ممّا تدرّ أرباحاً، لذلك فإنّه قبِل بعرضِ صديقٍ له بالمشاركة في شركة فرنسيّة تعمل بالاستيراد والتصدير مع البرتغال، وهكذا باع هكتارات من أراضيه وجَدَّ لتنجح أعماله. كان مكانه فارغاً في البيت، ولم تكن أمّ إيزابيل تقدّم الكثير لطفلتها، فقد كانت منهمكة هي أيضاً في أنشطة الأبرشيّة، خاصّةً بعدما جرى في ذلك الحين. إذ حدث أنّ كاهناً في أبرشية فخمة في لشبونة وضع في رأسه فكرة معارضة النظم التي يطبّقها البطريرك ذو الميول الفاشيّة المتطرّفة، حفظنا الله منها ورعانا. وكانت معارضة تلك النظم في ذلك الوقت نوعاً من الجنون لأنّ البطريرك كان هو وسالازار شخصين في جسم واحد، نشآ سويّة وبقي سالازار ككاتم أسرار البطريرك. أمّا ذلكَ الكاهن فكان إنساناً طيّباً بالتأكيد، لكنّه شخص مغرور، لذلك فقد بدأ يقارع طواحين الهواء. وهكذا جاءت الشرطة السياسيّة ذات يوم إلى الأبرشيّة وقالت له: "يرجى التفضّل بالذهاب معنا". هاجت عندها بعض الأوساط في لشبونة لأنّ المساس بذلك الكاهن يعني المساس بكاثوليكيّين معيّنين لهم ثقلهم في الرأي العام. وكان هؤلاء

الكاثوليكيون يتساءلون كيف ينتهي الأمر بكاهن كهذا إلى السجن لأنّه وقف على المنبر ضدّ الفرّيسيّين؟ هذا مكتوب في الإنجيل. وهكذا بدأوا بتشكيل لجان وجماعات للدفاع عنه، ترأست أمّ إيزابيل إحداها. فهي كانت على الأرجح تحبّ ذلك الكاهن بعض الشيء. ولا أنكر أنّه كان رجلاً وسيماً، طويلاً بشرته زيتونيّة اللون، شعره فحميّ مملّس، بل إنّه جاء في بعض الأحيان لتناول الشاي عندنا وكانت أمّ إيزابيل تحيطه بكلّ أنواع الرعاية. وعندما اعتقلوه رأت السيّدة في الأمر مصيبة، فقلت لها: "وماذا يعني اعتقال شخص أكثر أو أقلّ خاصّةً وأنّ قلعة بنيشيه ممتلئة بالسجناء السياسيّين، كما أنّ نصف البلد في السجن يا سيّدتي العزيزة، ولا بدّ أنّ السجناء بحاجة إلى كاهن بينهم يواسيهم ويسمع اعترافاتهم". لكنّها كانت صمّاء فيما يتعلّق بهذا الأمر. كانت تجلس طيلة النهار أمام الهاتف تكلّم صديقاتها وأعضاء اللجنة وسكرتارية البطريرك، وفي المساء كانت تجتمع مع سيّدات لشبونة الأنيقات لفترات طويلة في نادٍ نسائيّ في نواحي "آفينيدا دوك جي لُوله". وهكذا فإنّ إيزابيل كانت تبقى معي كلّ مساء، وكانت تخشى الذهاب للنوم ولا تأوي إلى فراشها إلاّ معي. لكنّها كانت لا تريد سماع القصص والحكايا لتنام، خاصّةً وأنّها تجاوزت سنّ الطفولة وأصبحت فتاة، فتاة جميلة بالفعل. كانت تحكي أحاديث غريبة. تقول مثلاً: "إنّ الكبار يجدون دائماً عشيقاً أو عشيقة، ومن يدري إذا كان أبي قد وجد أيضاً في باريس عشيقةً له، أمّا أمّي فقد وجدت عشيقاً مثاليّاً وخياليّاً لا تجرؤ على مبادلته الحبّ لأنّه كاهن لا يفكّر إلاّ بالفرّيسيّين، وأعتقد أنّ ذلك الكاهن

أحمق بالفعل". لذلك كنت أقول لها: "يا إيزابيل، إنّ فتاةً بعمرك يجب ألاّ تتطرّق إلى أحاديث من هذا النوع"، فكانت تجيبني: "بي، لقد عشت دائماً معنا وأنا واثقة أنّكِ لم تعرفي رجلاً البتّة، لم يكن لكِ عشيق أبداً، أمّا أنا فسأجد عشيقاً لي عندما يحين الوقت، سأجد رجلاً مغروراً مثل الذين تجدهم أمّي، سأجعله يتولّه بي ويجنّ فيّ ثم أتركه يموت يأساً". فكنت أجيبها: "يجب ألاّ تحكي مثل هذه القصص لأنّك فتاة صغيرة وهذه أمور خاصّة بالكبار. أنت صغيرتي الحلوة، لا تفكّري في مثل هذه الأمور يا إيزابيل". لكنّها كانت تصرّ: "هذا ليس صحيحاً، لقد كبرتُ، سأجد عشيقاً وأجعله يموت يأساً". هكذا كانت إيزابيلّتي.

كانت تسترسل في حديثها، ثمّ صمتتْ ونظرت إليّ. عندها فقط أدركتُ أنّها عجوز بالفعل، ومستودع ذكريات بالٍ خرِب.

قلت لها: "أيّتها السيّدة العزيزة بريجيدا، إنّ قصتك تثير الحزن، وإنّي أدرك أنّك كثيراً ما أشفقت على إيزابيل، لكنّ هذا لا يكفيني، أريد أن أعرف أشياء أخرى". عندها نظرت إليّ نظرة شكّ وأجابت: "لا أعرف ماذا يمكن أن أقول لك زيادةً عن هذا. كنت مجرّد جدّة لها"، فقلت: "إنّ جدّتها لا بدّ أن تعرف أنّ لها مشاكل مع الشرطة، مشاكل خطيرة، مع الشرطة السياسيّة". نظرت إليّ بمزيد من الشكّ وسألتني: "من أخبرك بهذا؟". أجبتها أنّ مونيكا هي التي أخبرتني. "أجل"، أجابت وهي غارقة في تأمّلاتها، "الآنسة مونيكا، لكن لماذا لم توجّه هذا السؤال للآنسة مونيكا؟". قلت لها: "لأنّ مونيكا تعرف أقلّ ممّا تعرفين أيتها العزيزة بي، إذا سمحتِ أن أناديك بهذا الاسم،

وقد أكّدتِ لي أنّك كنت تهتمّين بأمر إيزابيل عندما كانت الشرطة تبحث عنها"، فسألتني: "هل أخبرتك بهذا الآنسة مونيكا؟" أكّدت لها أنّ "مونيكا هي التي قالت لي هذا، فلماذا تنفين؟ لا تنفي أيتها العزيزة بي ولا تتراجعي وتنكري". "أنا لا أتراجع عن شيء"، قالت بي وكأنّها طُعنت في الصميم، "لا أتراجع ولا أندم حتماً عن تلك اللحظة التي كانت إيزابيلّتي فيها بحاجة إليّ". "حدّثيني إذن عن تلك اللحظة"، قلت. سكبتُ عندها كأس ماء من إبريق موجود على الطاولة وقالت: "ذات ليلة قرعتْ على بابي"، ثمّ أسرّت همساً: "كان الوقت حوالي منتصف الليل، وقالت لي: بي، إنّ الشرطة تبحث عنّي. كانت تمطر، كانت كلّها مبلّلة". صمتت برهة، فقلت لها: "حسناً وبعد ذلك؟" فقالت: "لا تقاطعني رجاءً"، فتركتها تتكلّم.

"كانت تمطر. كان شعرها رطباً بالمطر وكانت كلّها مبلّلة. عندها سألتُها: 'بيل، يا صغيرتي بيل، ماذا تعنين بالشرطة؟' لكنها لم تحر جواباً، فلحقتُ بها عبر الممرّ وأنا أسألها: 'ماذا تعنين بالشرطة؟ لماذا الشرطة؟ ماذا دهاك؟' بقيت على صمتها، فأصررت، وكنت أحضّر لها الحليب الساخن: 'ماذا فعلتِ حتّى تبحث الشرطة عنك؟ ما نوع القصّة، هل هي قصّة سياسيّة؟'. 'ما أغباكِ يا بي، إنّها طبعاً قصّة سياسيّة. لا تسأليني مزيداً من الأسئلة. إذا جاء أحد وسأل عنّي فأنا غير موجودة، وأنت لا تعرفين مكاني. ربّما يأتي أحدهم ويقول إنّه صلة الوصل، فهؤلاء هم من الأصدقاء، لكنّي أنا خارج البيت طيلة النهار، ولا آتي إلى البيت إلاّ من حين لآخر لأنام'. غير أنّ رجالاً جاؤوا ذات ظهيرة، كانوا من الشرطة السياسيّة، فتّشوا كلّ مكان،

بصلف، وطرحوا عليّ أسئلة كثيرة. 'إنّك تعرفين أين هي ويجب أن تخبرينا بهذا'، هدّدوني. أجبت بأنّي تعرّفت إليها حين كنت أخدم في بيتها، ولا أعرف الآن عنها شيئاً. 'ومن ينام هنا إذن؟' سألوني بعد أن شاهدوا الغرفة الصغيرة التي تنام فيها إيزابيل. 'هنا تنام صديقتي ماريا داكونسيساو'، كذبت طبعاً فهذه كانت خبّازة كانت تخدم في بيوت الأغنياء، وهي الآن متقاعدة. وهكذا عندما عادت إيزابيل ذاك المساء أخبرتها بكلّ هذا، فتناولت كيساً صغيراً كانت قد خبّأته ولحسن الحظّ لم تعثر عليه الشرطة، يبدو لي أنّ فيه كتباً وبعض المناشير، قالت لي: 'إذا بحث عنّي صلة الوصل فقولي له إنّي قد ذهبت عند صديقة في مكان أمين'، ثمّ قبّلتني وانطلقت. ولم أرها منذ ذلك الحين".

استعادت أنفاسها وسكبت كأساً آخر من الماء. ثمّ كرّرت: "لم أرها منذ ذلك الحين". عقّبتُ بعدها: "هذا ممكن، لكن لا بدّ أنّك قرأت عن نعيها في الصحيفة، ومن غير المعقول ألاّ يكون شخص ما قد أخبرك بهذا". نظرت إليّ بي العجوز نظرة استياء من فوق نظّارتيها وسألتني: "عن أيّ نعي تتحدّث؟" فأجبتها: "عن قدّاس اليوم السابع في كنيسة كاسكايس". سألتني عندها: "وهل أخبرتك بهذا أيضاً الآنسة مونيكا؟"، فأجبت أنّ مونيكا قد ذهبت يومها إلى الكنيسة ولم تجد أحداً فيها. "كانت مزحة بلا ذوق، هناك من الحمقى من ينشر دائماً مثل هذا المزاح في الصحف". فقلت: "إنّ ايزابيل لم تنتحر إذن". "ما هذه الأفكار؟ وهل تظنّ أنّ إيزابيلّتي الصغيرة قادرة على الانتحار، هي صاحبة تلك الشخصيّة؟"، "إذن؟" سألتها. "إذن ماذا؟" سألتني بدورها. "إذن أين انتهى بها الأمر؟". باعدت بين

ذراعيها وقالت: "إلى حيث يقودها القدر"، فسألت: "وهل تعرفين أين هي؟"، فأجابت وهي تتنهّد: "لا، طبعاً"، ثمّ أضافت: "العفو، سيّدي، حتّى لو كنت أعرف شيئاً فهل تظنّ أنّي سأخبرك بهذا أنت الذي لم أره قطّ ولا أعرفه البتّة؟ ثمّ لماذا كلّ هذا الاهتمام بها؟". أجبت: "بسبب أمر خاصّ قد يطول الحديث عنه وشرحه".

بدا لي أنّي بلغت نقطة ميّتة. فالإصرار غير مُجدٍ إذا كانت بي لا تعرف شيئاً، وهو غير مُجدٍ حتّى لو كانت تعرف لأنّها لن تقدّم معلومات عن بيل لمجهولٍ وصل إلى بيتها بعد سنين طويلة. لذلك فقد قلت: "لا تعرف مونيكا أكثر ممّا ذكرتِ، فهي لم تكن ترافقها في ذلك الحين، لكنّك، أنت أيّتها العزيزة بي، لا بدّ أنّك تعرفين رفاق إيزابيل خلال تلك الأيّام عندما كانت مختبئة في بيتك". "صلة الوصل"، أجابت على الفور، "صلة الوصل كان رفيقها". "ومن هو صلة الوصل هذا؟" سألتها، "أعني، وجهه؟" فقالت: "إنّه غريب"، فقلت: "حتماً غريب. لكن لا بدّ أنّ هناك شخصاً ما تعرفينه ممّن كانوا يرافقون إيزابيل وقتها". بدا أنّها تهوم في الفراغ. أجابت: "أعرف عازفة موسيقى، كانت إيزابيل ترافق حينها عازفة موسيقى تسكن في ترافيسّا دا كارمو، لكنّي لا أعرف الآن عنوانها. إنّها موسيقيّة تعزف موسيقى حديثة، اسمها أجنبيّ، أخبروني أنّها تعزف في نادٍ في براسا دا آليغريا، هل تعرف، تلك الموسيقى التي اخترعها الزنوج، لا أدري ما اسمها، ولا أذكر حتّى اسم تلك الفتاة، إنّه اسم أجنبيّ. والآن عمت مساء، العفو، فأنا أذهب للنوم مبكّرة في المساء".

٣

الدائرة الثالثة

تيكس. لشبونة. استيعاب

أيام الأحد في لشبونة، كيف يمكن أن تكون بعض الآحاد في لشبونة عندما يغزوها ضبابٌ أطلسيّ كثيف يخنق كلّ المدينة، وماذا يفعلون في الصباح؟ قال لي صديقي إنّهم يذهبون إلى الصلاة في كنيسة سان دومينكوس، ويتعرّضون بعد الظهيرة إلى بضع قطرات من المطر قبل أن يبدأوا بحكّ بطونهم. وهذا ما فعلته أنا أيضاً. سوى أنّي لم أذهب للصلاة، بل تعرّضت لقطرات المطر وبدأت بحكّ بطني. وفي النهاية حلّ المساء.

خرجتُ من آليكساندر هيركولانو وبدأت بالسير على طول آفينيدا دا ليبيردادهْ. توقّفتُ أمام واجهة شركة طيران عليها صورة دعاية ضخمة تدعو إلى زيارة الصحراء. لشبونة كانت أيضاً شبه صحراء في تلك الساعة. لم أكن قد أكلت ولم أكن جائعاً، كنت بحاجة فقط إلى شيء من الشجاعة. توقّفت أمام فندق تيفولي وفكّرت بالدخول إلى البار، فلربّما وجدت شيئاً من السلوى فيه، خاصّةً وأنّ عامل بار قديم أعرفه يعمل في المكان، اسمه جواكيم.

كان جواكيم موجوداً في البار ويتقلّد البابيونة المعهودة لكنّه بدا أنّه لم يعرفني. قلت له: "مساء الخير يا جواكيم، ألا تذكر الأصدقاء القدامى؟" نظر إليّ نظرة محايدة وأجاب بحدّة: "الأصدقاء يبقون أصدقاء"، وعاد إلى خدمة زوج من الأميركيّين الأنيقين. جلست أنا على كرسيّ ثمّ غيّرته وجلست إلى طاولة في زاوية الصالة. جاء

جواكيم مسرعاً وسأل: "ماذا بوسعي أن أقدّم لك؟" قالها بلهجة تنمّ عن الاحترام وكان من الواضح أنّه لم يذكرني. فقلت له: "اسمع يا صديقي جواكيم، إنّك لا تذكرني لكنّك كنت ذات مرّة تعرفني. صبراً، فهكذا هي الحياة، وذاكرتك أقصر ممّا يجب بالنسبة لموظّف بار، لأنّ ذاكرة موظّفي البارات عادةً قويّة كذاكرة الفيلة". لكنّ جواكيم رجل متعدّد المواهب حاضر البديهة لأنّه أجاب في الحال: "ليس من اللائق أن نظهر أنّنا تذكّرنا الزبائن، فلا أحد يعرف ما إذا كانوا سيقبلون الأمر"، قالها وهو يضع على الطاولة صحن فستق صغير، ثمّ سأل: "هل تريد طلبك المعتاد؟"، نظرت إليه بفضول لكنّ ملامحه بقيت جامدة، وهنا أجبته: "أجل أريد المعهود، هذا لأتحقّق وحسب من قوّة ذاكرتك". مدّدت ساقيّ تحت الطاولة. جاء جواكيم وطلب المعذرة عن سوء الخدمة ولم يكن هناك في صوته أيّ انفعال، قال: "إن زوج الأميركيين ذاك جهنّمي بالفعل، فهما لا يشربان إلاّ الويسكي الأميركيّ، وكأنّه لا يوجد غيره في العالم، أنهوا الزجاجة فتوجّب عليّ البحث عن أخرى في المخزن".

وضع على الطاولة بلطف كأساً مخروطيّ الشكل مترعاً إلى حدٍّ ما، ثمّ تناول إبريقاً من البلّور وأكمل المشروب. "فودكا بالليمون لأنّ البرتقال يسبّب لك حموضة في المعدة"، وتمتم قائلاً: "أرجو أنّي لم أخطئ، مع قطرة آنغوستورا"، ثمّ حرّك المشروب بعناية بواسطة ملعقة صغيرة وأضاف متسائلاً: "هل تذكّرتُ كلّ شيء؟"، قلت: "إنّك رائع بشكل مطلق يا جواكيم، ماذا تفعل لتتذكّر كلّ شيء بعد مرور كثيرٍ من الوقت؟" فأجاب: "إنّها ذاكرة الفيلة، وهكذا يجب أن

يكون موظفّو البارات"، ثمّ أردف: "وصديقك روي، ماذا عنه؟ كان هو أيضاً يحبّ نفس المشروب". أجبت: "إنّ روحه متعلّقة بجزيرة تيمور، وهو يستحق ذلك لأنّه المكان الذي قضى فيه أجمل أيام حياته، لكنّ جسده موجود هنا في المدينة، في مقبرة بينفيكا". "هذا ما يؤسفني"، علّق جواكيم، "كان يكتب قصائد جميلة، إنّي آسف حقّاً". ثمّ سألني ما إذا كان بوسعه الجلوس فقلت: "بالتأكيد اجلس يا جواكيم، فلنثرثر سويّة". "إنّ هذين سيسكران"، تمتم وهو يشير إلى زوج الأميركيين، ثمّ سألني: "لكن هل صديقك روي برتغاليّ أو تيموريّ؟"، فأجبت أنّه "كان يكتب بالبرتغاليّة، لكنّ فتحة عينيه كانت تيموريّة المظهر وكذلك ذكرياته عن أناشيد الطفولة". فقال جواكيم: "أذكر أنّه جاء مرّةً إلى هنا وبكى، كان يبكي لأنّ البرتغال أضاعت تيمور". قلت إنّه "أرسل لي قصيدة قبل أن يموت وقد قمت بترجمتها إلى اللغة البولونيّة، هل تريد أن أتلوها عليك؟" فقال "إنّي للأسف لا أعرف البولونيّة، إنّي لم أقترب البتّة من هذه اللغة". قلت: "من المفهوم أنّي سأقرأها بلغتنا، وهي الآن في جيبي". سحبت جزداني وأخرجت منه ورقة مطويّة أربع طيّات. قلت لجواكيم: "عنوانها هو حالة شعريّة وأعتقد أنّها تتعلّق بنا كلّنا، وهي على كلٍّ تتعلّق بي على وجه الخصوص، لأنّي أعيش في ظروف مماثلة هناك في البلد الذي جئت منه". صفّيت صوتي وقرأت: "لقد تعبت منك بالفعل/ لكنّهم يتوافقون معك، أيّها الشعر! إنّنا نذهب دائماً سويّة/ ونستيقظ سويّة في نفس السرير/ ولقد نظمنا أغانٍ ووضعنا أولاداً/ طردتنا الكلاب والندى فعدنا إلى الأرض الموعودة/ إلى جبالٍ مقدّسةٍ وفجرٍ غامضٍ

يشرق بالشفق على الغرانيت/ فاهدئي يا روح/ استيقظي وغنّي للصوم الشمسيّ الذي يعانقنا ويصهرنا".

نظرت إليه ونظر جواكيم إليّ. قال: "إنّها جميلة بالفعل، لقد شعرت برعشة في جسدي، جعلتني أفكّر بأحد تلك الأيّام الصيفيّة من أيّام طفولتي، عندما كنّا لا نرى إلاّ أشجار السنديان، عندما كانت الشمس لا ترحم". قلت: "إنّ فكرة الصوم الشمسيّ الذي يعانقنا ويصهرنا ليست فكرة سيّئة، أليس كذلك يا جواكيم؟" فأكّد هو: "لا، ليست سيّئة على الإطلاق، لو أنّي كنت أفهم الشعر! لكنّي اخترت هذه المهنة، وهأنذا أقدّم الكحول". فحاولت أن أواسيه قائلاً: "أظنّ أنّ الشعر لا يتناقض مع الكحول"، فسألني "هل تعتقد ذلك؟ هل تريد مزيداً من الفودكا؟". "لا، لكن ربّما بعض الآفسنتين[1] كما كانوا يشربون في القرن الثامن عشر، كنت أذهب مرّة إلى بار بايرو آلتو الذي كان يقدّم مشروب الآفسنتين، من يدري إذا مازال موجوداً". فأكّد جواكيم أنّ "الآفسنتين مازال موجوداً، وأعرف مصنعاً في المينهو ينتجه، ينتج عدداً قليلاً من الزجاجات، على كلٍّ هناك بضعة بارات في هذه الأنحاء تقدّمها، أظنّ أنّه ليس ممنوعاً في البرتغال، نحن لسنا مثل بقيّة بلدان أوروبّا". فسألته: "ماذا تعني بهذا يا جواكيم؟" فأجاب بكبرياء وتعالٍ: "يعني أنّنا نهتمّ باستقلاليّتنا". فقلت: "حتماً، على الأقلّ فيما يتعلق بالآفسنتين". استرسل جواكيم وسألني: "ماذا عن خططك الجميلة لهذا المساء، أين ستذهب؟". "إلى نادٍ قريب هنا"، أجبته، "في براسا دا آليغريا، سأذهب لأسمع الجاز". فعقّب جواكيم: "من يدري فلربّما

١ Assenzio أو Absinthe مشروب مقطّر بدرجة كحول عالية وبطعم اليانسون. (م)

وجدت بعض الآفسنتين هناك، فلقد سمعت أنّهم يقدّمونه في تلك الأماكن". سألته: "كم حسابي يا صديقي جواكيم؟"، فمدّ يديه نحوي وأجاب: "أُصرّ على أن أستضيفك اليوم، ويجب أن تسمح لي بهذا بعد كلّ هذه السنين الطويلة". فأجبت: "وأنا أُصرّ أيضاً على الدفع". قال: "اسمع، اعتبرها ضيافة من الفندق إذن، لأنّ هذا يبقى فندق درجة أولى، بل اعتبرها على الأقلّ ضيافةَ ذاكرتي القويّة كذاكرة الفيلة". ومدّ يده نحوي مصافحاً.

كان هوت دوغ نادياً صغيراً ليس فيه إلاّ منصّة الخدمة وبضعة طاولات، ولم يكن مزدحماً جدّاً لحسن الحظّ. وأنا لم أكن أطيق الازدحام في ذلك المساء. لربّما لم يكن لدى اللشبونيّين رغبة لسماع الجاز في ذلك المساء الضبابيّ. كان هناك على الباب إعلان كتب عليه: ساكسفون تيكس. ثمّ: على شرف سوني رولّينز.

جلست إلى طاولة في الزاوية. جاء النادل وسألني ما إذا كنت أريد تناول الطعام قبل الموسيقى أو بعدها، فأجبت: "بحسب مدّة الموسيقى". أجاب: "هناك مقطوعتان فقط، عازفة الساكسفون لن تعزف هذا المساء إلاّ مقطوعتين فقط، إنّها مرهقة بعد عزف البارحة السبت الذي دام حتّى الثالثة صباحاً". رأيت أنّ من الأفضل تناول الطعام بعد العزف فسألني النادل إذا كنت أريد مشروب آبيريتيف، فقلت: "يسرّني تناول الآفسنتين". لم يبدُ عليه أيُّ ردّة فعل، بل أجاب: "بالثلج أم دون ثلج؟" سألته: "ولماذا؟ هل تقدّمون الآفسنتين بالثلج أيضاً؟" قال: "أجل، هنا في هذا النادي نقدّمه مع الثلج"، فقلت: "دون ثلج" لمجرّد مخالفته. "أريد آفسنتين بحقّ كما كانوا يشربونه ذات مرّة".

بدأ البيانو والكونترباس بالاستعداد للعزف. اختفى النادل وخفتت الأضواء. دخلت عازفة الساكسفون من بابٍ جانبيّ واستندت إلى منصّة الخدمة. كانت امرأة بشعر رماديّ لكنّ بدا أنّها مازالت شابّة. أعجبتني في الحال: كانت على وجهها تعابير حازمة، رسم الزمان عليه شيئاً من علاماته، وعيناها زرقاوان. كان الساكسفون معلّقاً في رقبتها بواسطة حبل من جلد. أسندت كوعيها خلف المنصّة، نظرت حولها وقالت: "سأعزف هذه الليلة على شرف سونّي رولّينز، مقطوعتين فقط. عنوان المقطوعة الأولى: 'كلّ شيء يحدث لي'[1]."

بدأت العزف بهدوء، ثمّ بقوّة أشدّ. أدركت أنّها أغنية تقليديّة، رقصة حوّلوها إلى جاز. كانت رومنسيّة عاطفيّة، فيها افتتاحيّات مفاجئة كانت تيكس تجيد عزفها. استمعت بانتباه، رغم أنّ هذا لم يكن يعني بالنسبة لي شخصيّاً أيّ شيء، لكنّي استمعت بانتباه. بعد أن انتهت صفّق بعض المعجبين لفترة قصيرة، صفّقتُ أناً أيضاً. أشعلوا الأضواء وجاء النادل ومعه الآفسنتين. قال إنّها استراحة، استراحة لمدّة عشر دقائق فقط، فالعازفة مرهقة هذا المساء. شكرته وأوقفته بيدي قبل أن يذهب. قلت: "اسمع، يجب أن تخبر عازفة الساكسفون أنّي أريد أن أكلّمها بعد انتهاء المقطوعة الثانية، وسأكون سعيداً إذا قبلَتْ بتناول العشاء معي، قل لها إنّي صديق إيزابيل".

ابتعد النادل وخفتت الأضواء من جديد. ظهرت تيكس وجلست إلى المنصّة. قالت قبل أن تبدأ: "ثلاث كلمات صغيرة"[2]، ثمّ بدأت

---

١ "Everything happens to me" (م)

٢ "Three little words" (م)

العزف. بدا لي أنّها تعزف حركةً في أربعة أرباع، ورغم أنّي لا أفهم في هذا لكنّ ذلك كان ما يسمّى هارد بوب، قاسياً عنيفاً، على طريقة العزف في الستينيّات، رغم أنّها كانت تحاول إدخال نوع من التغيير والتقلّب، فيه القليل من الرومنسيّة. صفّق الناس وصفّقت أنا كذلك. أضيئت الأنوار. وضعت الفوطة على ركبتيّ وانتظرت. وصلت تيكس بعد قليل. كانت ترتدي قميصاً أزرق. "هل تريد رؤيتي؟" سألتني. فأجبت: "إنّي صديق قديم لإيزابيل، هل ترغبين بتناول العشاء معي؟". جلستْ إلى الطاولة وسألتني: "ماذا تشرب؟"، كانت تتحدّث بلكنة إنكليزيّة واضحة. أجبت: "إنّي أشرب الآفسنتين، لكن دون ثلج، وقد تناولت قبلها كأساً من الفودكا، لا بدّ أنّه خليط قاتل". ثمّ سألتني: "وماذا تريد أن تأكل؟"، فقلت: "البيض المقليّ مع الكرشة. ما رأيك؟"، فقالت: "يبدو لي أنّ هذا خليط قاتل أيضاً، تناوله على كلٍّ، أمّا أنا فسأتناول طبقاً من سلطة الغامبيري".

جاء النادل وعلى وجهه ابتسامة عريضة. طلبنا البيض والسلطة. بدأ مكبّر الصوت في المحلّ بإذاعة موسيقى ساكسفون خافتة. سألتها: "هل هي من موسيقاك؟"، فأجابت: "نعم. إنّها هديّتي على شرف سونّي رولّينز. أسطوانة سجّلتها قبل شهر". سألتها: "وهل كنت تعزفين عندما تعرّفتِ إلى إيزابيل؟"، تنهّدت تيكس وقالت: "إنّك تعيدني إلى الوراء في الزمن. كنت آنئذٍ في بداية عملي، كنت في الجامعة وكنت أعزف من حين لآخر في مطعم الطلبة". عقّبتُ قائلاً: "إنّها قصة تثير الفضول، فتاة إنكليزيّة تدرس في لشبونة وتعزف الساكسفون في الجامعة!". "أميركيّة"، صحّحت تيكس كلامي، "إنّني أميركيّة، ثمّ إنّ قصّتي لا

تثير الفضول أكثر من غيرها. كان أبي مهندساً في نورفولك فعرضتْ عليه الشركة التي يعمل فيها العمل في أحواض بناء السفن في لشبونة، وكانت أمّي ترغب في التعرّف إلى أوربّا، فقبل أبي العرض وجئنا إلى البرتغال، تسجّلتُ في كلّية العلوم، وأنا في الحقيقة عالمة أحياء، لكنّي لم أمارس المهنة قطّ، وكنت أدرس الساكسفون، لكنّي كنت أخجل من عزفه، كانت إيزابيل هي التي اكتشفت أنّي أعزف فأصّرت على تقديمي في مطعم الطلبة. في تلك الفترة كان استماع الطلبة البرتغاليّين للجاز نوعاً من الثورة، فالجاز موسيقى بلدٍ ديموقراطيٍّ كبير، بينما كان النظام هنا في البرتغال يشجّع موسيقى الفادو الشعبيّة الحزينة ويشجّع أيضاً مغنّيةً صوتها جميل، كانت مشهورة آنئذ". فقلت: "أظنّ أنّي عرفت من هي تلك المغنّية"، فقالت: "بكلّ تأكيد لقد تفاهمنا ولا حاجة لذكر أسماء"، فسألتها "وإيزابيل؟". أجابت تيكس: "إيزابيل كانت في جمعيّة طلبة، طلبة ضدّ النظام، طلبت منّي أن أنتسب إليها فقبلت، لكنّني كنت محميّة بجواز سفري الأميركيّ، ولم يكن في الأمر مخاطرة مثلما كان بالنسبة إليها. لم نكن نفعل في الحقيقة شيئاً في تلك الجمعيّة، سوى أنّنا كنّا نقرأ كتباً سياسيّة ممنوعة ولا شيء أكثر. لكن كان لإيزابيل أصدقاء آخرون لم تعرّفني إليهم، ثمّ إنّها اختفت لفترة من الزمن عرفت بعدها أنّها اعتقلت ووضعوها في سجن كاشيّيس. سمعنا أخبارها من حارس السجن الذي خاطر بنفسه وجاء إلى الجامعة ليأتي برسالة منها، كان سجّاناً مع الثوّار ويساعد السجناء السيّاسيّين". صمتت تيكس ثمّ أردفت: "لقد مضى زمنٌ طويل". ثمّ قالت: "كما أنّني ذهبت إلى أميركا لفترة معيّنة، وعندما رجعت أخبروني إنّ إيزابيل

ماتت، انتحرت في السجن، وتلوا عليّ نعياً ظهر في الصحيفة، هذا كلّ ما أعرفه".

صمتنا نحن الاثنان، كما أنّ الحديث انتهى أيضاً. لم نكن نسمع إلاّ همسات آخر الزبائن الخافتة تصلنا من الطاولات الأخرى. قلت: "هل تعلمين يا تيكس أنّه لا توجد شهادة وفاة لايزابيل، لقد بحثت في كلّ أرشيف البلديّة". فسألتني: "ماذا تعني؟"، "هذا وحسب، أي أنّها لم تمت قطّ من الناحية الرسميّة". قالت تيكس: "لكنّهم أخبروني أنّها انتحرت في السجن ببلع قطع من الزجاج". فقلت: "حسناً، يمكن أن تروى قصص كثيرة"، فأجابت تيكس بقناعة: "لكنّي قرأت نعيها في الصحيفة، قرأته بأمّ عينيّ". فسألتها: "وهل تصدّقين الصحف؟ ثمّ دعكِ من هذا، إذ يمكن لأيٍّ كان أن ينشر نعوة". "هذا صحيح"، اعترفت تيكس. "والآن ماذا تنوي أن تفعل؟"، فأجبت: "قد يكون من المستحسن أن أعثر على حارس السجن الذي تكلّمت عنه، فلربّما كان يعرف أشياء أخرى عنها. هل تذكرين اسمه؟"، وضعت تيكس وجهها بين يديها. "يا إلهي، كنت أعرفه ذات يوم. لكن مضى على ذلك وقتٌ طويل". فشجّعتها: "ابذلي مزيداً من الجهد، أمامنا الليل بطوله". فنظرت تيكس إليّ وهزّت برأسها. "آسفة، لقد محوته من ذاكرتي، لا أذكر إلاّ أنّه من الرأس الأخضر". "هذا قليل"، أجبتها، "ابذلي بعض الجهد". فأجابت: "لا أذكره بالفعل، آسفة"، فألححتُ: "اسمعي يا تيكس، إنّ ذلك الرجل مهمّ بالنسبة لي وعليك أن تبذلي جهدك، أستطيع أن أقول لك إنّ الآفسنتين لا يسبّب الإثارة فقط بل يعطي نوعاً من الوضوح الخارق في الذهن، فما رأيك بكأس أخرى من الآفسنتين؟"،

ابتسمت وبرّرت موقفها: "لم أتناوله قطّ ولا أعرف ما الذي يمكنه أن يفعله بي"، وأردفت: "على كلٍّ لا يهمّ، فالأمسية قد انتهت". "عليكِ بالآفسنتين". ناديت النادل وخطرت على بالي فكرة أخرى، فسألتُها: "كان سونّي رولّنز يعزف خلال الستّينيات، أليس كذلك يا تيكس؟ أليست موسيقاه من الستّينيات". أكّدت ذلك وأجابت: "كانوا يعزفونها في الجامعة، وهو كان واحداً من أساتذتي". فقلت: "حسناً، فلنسمع الأسطوانة مرّةً أخرى". لم يبقَ في النادي إلّانا. استؤنفت الموسيقى وجاء النادل بالآفسنتين. أشعلت تيكس غليوناً طويلاً مصنوعاً من العظم وسحبت منه نَفَسين. قالت: "لقد أهداني إيّاه زعيمٌ هنديّ، إنّه غليون يجلب الحظّ. كان هنديّاً من آراباهو قرب آركنساس، أخبرني أنّه يجب التدخين به خلال اللحظات الصعبة". عادت الأسطوانة لتعزف كلّ شيء يحدث لي، وبينما كان الساكسفون ينفتح على نغمة موسيقيّة عريضة أخذت تيكس يدي وقالت لي: "اسمه آلميدا، كان اسمه السيّد آلميدا"، فقلت: "اللعنة، البرتغال ممتلئة بأسماء آلميدا"، فابتسمت تيكس مشجّعةً وقالت: "إنّه آلميدا من الرأس الأخضر، كان قبل سنين حارساً في سجن كاشيّيس"، وأضافت: "إن كان لا يزال حيّاً فلن يصعب عليك العثور عليه بما أنّك من زوّار أرشيف البلديّة". سألتها: "هل علينا أن نبقى حتّى تنتهي الأسطوانة. فلقد بدأت أرغب في سماع الأغنية حتّى نهايتها"، فرفعت تيكس كأس الآفسنتين ودعتني لشرب نخب. كان قد بقي في كأسي بضع قطرات. سألتْ: "في صحّة من هذا النخب؟"، فأجبتُ: "في صحّة سونّي رولّينز لأنّه يستحقّ ذلك". فقالت: "في صحّة سونّي"، ثمّ أضافت: "وفي صحّة بحثك".

٤

الدائرة الرابعة

العمّ توم. ريبوليرا. ترميم واستعادة

نظرت حولي. كانت حافلة الباص شبه فارغة. كان هناك شابّان أسودان الزنوج متشبثّان بباب النزول، كان شعرهما مجدولاً، وكانت أمامي عجوز تحمل حقيبة المشتريات، وعلى الكرسيّ الأخير كان هناك سيّد رثّ المظهر بالي الثياب. نهضتُ وذهبت لعند السائق. كانت هناك لوحة كُتب عليها: "ممنوع التكلّم إلى السائق". كان رجلاً من الرأس الأخضر، دقيق المعالم، يظهر أنّه خليّ البال. أخبرته أنّي أريد الذهاب إلى ريبوليرا وأريد أن أعرف الموقف، فأصدر صوتاً من شفتيه مثل صفيرٍ طويل وأجاب وهو ينظر أمامه: "إنّه الموقف الأخير. سننزل جميعاً، ريبوليرا هي نهاية الخطّ، ولا شيء بعدها".

كنت آخر من نزل. كانت عبارة عن ساحة مستديرة مليئة بالأعشاب البريّة، وفي وسطها تمثال لبيضة ضخمة من الغرانيت ولا بدّ أنّها نصْبٌ على شرفِ أحد ما أو شيءٍ ما. كانت هناك إلى جانبها لوحة معدنيّة تعلوها كتابة: "أهلاً بكم في ريبوليرا". وقد رُسم على اللوحة الحيُّ بشوارعه مع إشارات مروريّة إرشاديّة. حاولت أن أعرف وجهتي. شارع كابو فيردي، شارع آنغولا، شارع سان تومي، شارع موزامبيق. كان مربّعاً من الأبنية الشعبيّة وبينها طرق قذرة وساحات مزرية. أخذت يميني وعبرت شارعاً صغيراً تحفّه أشجار صغيرة، وكان من الواضح أنّه لا يوجد في ذلك المكان مجارٍ أو خدمات أخرى. وأخيراً وجدت شارع سان تومي، فبحثت عن

الرقم ثلاثة وعشرين، وكالعادة لم يكن هناك على الجرس أيّ اسم، وكان لا بدّ من تذكّر الشقّة، هل كانت في السادس على اليمين أو السادس على اليسار؟ قرّرت الاعتماد على الصدفة، فأجابني صوت عريض بلكنة أفريقيّة خفيفة تمدّ حروف العلّة القصيرة. قلت: "أنا إيزلوفاكّي"، فأجاب: "هنا آلميدا، يمكنك أن تصعد، الطابق السادس على اليمين، لا يوجد مصعد".

فتحت لي الباب عجوزٌ سوداء بدينة حليقة الشعر. يُفضي المدخل مباشرةً إلى صالة طعام صغيرة فيها طاولة مستديرة مليئة بالأطباق القذرة. كانت في الزاوية فتاة في الخامسة عشرة من عمرها تكوي أكواماً من الغسيل. قالت المرأة: "هذه حفيدتي ماريا أوزيتا، تفضّل، سيأتي زوجي في الحال". أجلستني على كرسيّ بجانب الصحون القذرة. كانت هناك مقابلي على الجدار الخالي من الأثاث لوحة ملوّنة فيها صورة جزيرة وبركان.

دخل الرجل وعليه علائم النعاس وشعره الأبيض منفوش. كان رجلاً أسود في حوالي الستّين من العمر، والغريب أنّ عينيه فاتحتان، كأنّه من الألب، كان نحيفاً، يرتدي قميصاً داخليّاً وكرشه بارزة مستديرة كالبطّيخة. قال: "تشرّفنا، أنا جواكيم فرانشيسكو توماس دي آلميدا، لكن يمكنك أن تدعوني توم، لا بل العمّ توم، إذا كنت تفضّل، وكما يدعوني الجميع". أخرج المرأتين بحديث باللغة الكريوليّة[1] لم أفهم منه الكثير وإن كان واضحاً أنّه لا يرغب برؤيتهما بين الأقدام، ثمّ ذهب إلى الخوان وأخرج منه زجاجة وكأسين. قال:

١ مزيج من اللغات الأوربّية المحلّية كالبرتغاليّة مع لغات المستعمرات. (م)

"إنّه مشروب الكاشاسا الذي يصنعونه في بلادي". حاولت أن أرفض لكنّ هذا لم يكن ممكناً. ارتشفت قطرة، كان كالنار. قلت: "اسمع يا سيّد آلميدا، احكِ لي كلّ شيء. نظر إليّ بعينيه الفاتحتين وصبّ لنفسه كأساً ثانية رشفها برشفةٍ واحدة. سألني: "كلّ شيء عن ماذا؟" فقلت: "كلّ شيء". أجاب وهو يوسّع بين ذراعيه: "كلّ شيء يعني لاشيء". فأردفت: "إذا كان كلّ شيء يعني لاشيء فأخبرني إذن عن كلّ شيء الذي يعني لاشيء. أخبرني كيف ماتت ولماذا ابتلعت الزجاج ومن وشى بها، إنّك تعرف كلّ هذا لأنّك كنت حارسها لمدّة أسبوع في سجن كاشيّيس، كانت لديك إمكانيّة للتحدّث معها، إنّك تعرف كلّ شيء عن إيزابيل".

شرب كأساً أخرى، وأجاب: "كلّ شيء يعني لاشيء". قلت: "إنّك ستسكر يا سيّد آلميدا، بهذه الطريقة ستسكر". أشعل سيجاراً وقال: "سيكون أفضل، بهذا سيتلاشى الخوف". قلت: "الخوف مِمَّ؟ اسمع يا سيّد آلميدا، لقد جئتُ من مكانٍ بعيدٍ جدّاً لأعرف، لأنّ صديقاً لي دفعني لأن أعرف، وها هي الحقيقة تشتعل الآن في داخلي، عليّ أن أعرف الحقيقة قبل أن أعود إلى مكاني البعيد. لقد انتحرت إيزابيل لأنّها وُشي بها. إذا كان هذا صحيحاً فكيف ماتت؟ ومتى؟ وكيف؟ أريد أن أعرف الحقيقة، لا يمكن لك أن تخاف الحقيقة، لقد انقضى زمنٌ طويل، وتغيّر هذا البلد، ولا يمكن لأحد أن يسيء إليك. فقل لي كلّ شيء". نظر إلى السقف وتمتم: "كلّ شيء يعني لاشيء".

ضربتُ الطاولة بيدي ضربةً هزّت الكأسين فوقها. "كفى، كفى

يا سيّد آلميدا، أو العمّ توم إذا فضّلت هذا، أريد أن أعرف قبل كلّ شيء ما إذا كانت إيزابيل قد انتحرت لأسباب شخصيّة أم لأسباب سياسيّة". فأجاب بهدوء: "إنّني لا أعرف شيئاً عن أسبابها الشخصيّة، فالآنسة لم تحدّثني أبداً عن أسبابها الشخصيّة". فقلت وأنا أحاول أن أركّز قواي العقليّة: "اللعنة، لقد كنتَ حارسها ولا بدّ أنّه كان لديك وقت لكي تراقبها وأن تلاحظ ما إذا كانت تنتظر طفلاً، أي إن كان بطنها منتفخاً، كانت لك عينان قادرتان على رؤية بطنها يا سيّد آلميدا!"، وهنا لمس السيّد آلميدا حاجبيه وأجاب بطريقة ملائكيّة: "لم أرَ شيئاً بهاتين العينين". فعقّبت: "أجل، لأنّ كلّ شيء يعني لاشيء ولاشيء هي كلّ شيء، لكنّهم أخبروني أنّ إيزابيل كانت تنتظر طفلاً، كانت هذه هي الشائعة التي وصلت من أصدقائها". شرب كأساً أخرى وقال باللغة الكريوليّة: "كاشاسّا رائعة"، ثمّ وضع يده على قلبه وتمتم: "لم تكن الآنسة تنتظر أيّ طفل، أستطيع أن أشهد على ذلك"، فأجبت: "هذا يدهشني، لكنّ كلّ شيء ممكن، بالنسبة لإيزابيل كلّ شيء ممكن. لماذا إذن، يا سيّد آلميدا، ابتلعتْ الزجاج".

شقّت زوجته الباب وأطلّت بشيءٍ من الفضول. قام السيّد آلميدا بحركة سريعة ولم يقل شيئاً فانسحبت الزوجة في الحال. ساد صمت مطبق بيننا. أشعل السيّد آلميدا سيجاره الذي انطفأ وتمتم: "إنّها خدعة كبيرة، يا سيّدي العزيز، خدعة كبيرة". حاولت أن أشجّع نفسي فشربت قطرةً أخرى من الكاشاسّا، ثمّ توسّلت إليه: "احكِ لي عن هذه الخدعة الكبيرة يا سيّد آلميدا، إنّك الوحيد القادر على إخباري عن هذه الخدعة". هنا نهض العجوز وأقفل الباب المؤدّي

إلى الممرّ بالمفتاح، ثمّ سحب بعض الدخّان ونفثه في حلقتين متداخلتين ونظر إليهما بانتباه كما لو أنّهما أهمّ شيء في العالم. تمتم: "لم تبلع الآنسة زجاجاً على الإطلاق، وهي لم تمت في السجن، هذا ما اعتقده الجميع، لكنّ الحقيقة مختلفة".

وضعت يدي بحماسة واضحة في يده وضغطت عليها. قلت: "إذا كنت تعرف هذه الحقيقة يا سيّد آلميدا، أو يا عمّ توم كما تفضّل، فأخبرني عن هذه الحقيقة ولن يضيرك الأمر شيئاً". ذهب السيّد آلميدا نحو النافذة ونظر إلى الخارج. كان الزجاج مبلّلاً بالمطر. كانت السماء تمطر رذاذاً ناعماً. تمتم بصوت لا يكاد يُسمع: "في كثيرٍ من الأيّام أقف وراء النافذة بعد الظهيرة لأنظر إلى الطريق، أشاهد الكلاب، هذا الحيّ مليء بالكلاب الشاردة، ربّما لن تفهمني يا صديقي لكنّ هذه الكلاب تربطني بالرأس الأخضر أكثر ممّا يربطني به أشخاصٌ أعرفهم، لأنّ هناك في الرأس الأخضر كلاباً شاردة كثيرة أيضاً، وهي صفراء اللون عادةً، ككلاب ريبوليرا تماماً، لذلك فإنّي أتساءل ماذا يربط هذا البلد بالرأس الأخضر وأجيب في نفسي إنّها هذه الكلاب المشرّدة، الكلاب الصفراء. على كلٍّ لم يبقَ لي أحد في الرأس الأخضر، ماتت كلّ عائلتي، لي طبعاً قريب يعمل موظفاً في الدولة لكنّه يرفض الاعتراف بشخص مثلي عمل حارساً في سجن سياسيّ خلال الحكم الفاشيّ، إنّه لا يحييّني، إنّه تافه، إنّه لا يستطيع أن يتخيّل ما فعلته أنا من أجل الديموقراطيّة في هذا البلد، ولبلده أيضاً، كم مرّة ضحّيت بحياتي، لا يمكن لذلك الأحمق أن يفهم شيئاً، إنّه موظّف رسميّ". حاولت أن أعزّيه وقلت: "أولم تعمل

أنت أيضاً موظّفاً رسميّاً طيلة حياتك؟"، فتمتم: "بلى، لكن كيف؟ هل تعلم يا سيّدي أنّ السجناء كانوا يصلون أحياناً سود اللون بعد أن تعتقلهم شرطة بيدهْ[1]، ولم يكن في ذلك أيّ مزاح بالطبع. بعد تخريجهم من الطبابة كانوا يضعونهم في الزنزانة، تكون وجوهم قرمزيّة وصدورهم منفوخة بسبب الضرب والجَلد بالسياط، عندها كنت أبدأ أنا، أنا العمّ توم، بتقديم المعالجة لهم، بتحضير القهوة، بوضع الثلج على جروحهم، فكانوا يثقون بي ويعطونني رسائلهم لأوصلها إلى عائلاتهم فكنت أرسلها لهم بالبريد المركزيّ، وأشياء من هذا النوع، كنت أساعدهم بما يمكنني، لأنّي أعرف ما يعاني منه إخوتي في الرأس الأخضر من الذين يريدون أن يصبحوا أحراراً، كانوا يعانون من الأمور نفسها، هل ترى غرابةً في ما أحدّثك فيه؟ وذات مساء جاءتنا الآنسة إيزابيل".

صمت العمّ توم برهةً ثمّ أردف قائلاً: "لم تكن لديها وثائق شخصيّة فقالت إنّ اسمها هو ماغدا. ضربوها خلال التحقيق بعد أن ضُربت في سيّارة الشرطة السياسيّة، فانتفخ وجهها وظهرت الأكياس تحت عينيها، ومن يدري لماذا بدت لي كابنة من الرأس الأخضر مثلي تماماً، هل تجد غرابةً في ما أقوله لك؟ فتاة من الرأس الأخضر، حتّى لو كانت شقراء".

صمت السيّد آلميدا، ثمّ فتح النافذة، أطلّ منها ونظر إلى تحت وألقى عقب السيجار، وأضاف: "هكذا بدأت الخدعة. لكن يجب أن أكون صريحاً وأقول إنّهم كانوا يدفعون لي، لا بل إنّي قمت بما

---

١ PIDE: International and State Defense Police (م)

قمت به لأنّهم كانوا يدفعون لي، أعني ليس لأسباب فكريّة. الخلاصة أنّي كنت بحاجة للنقود، كانت زوجتي قد أنجبت ابننا الرابع، وأنت تعلم أيّها العزيز أنّه لا يمكن لراتبِ حارسٍ أن يسدّ رمق عائلة من سبعة أفراد بمن فيهم أمّي. على الأقلّ يمكّن لي أن لا أحرمهم من الطعام، وأنت تعلم أنّ الطبق الوطنيّ في الرأس الأخضر هو الكاشوبا الذي يُصنع من الذرة والفاصولياء ودرنات المانويكا ولحم البقر أو الخنزير، هذا هو طبق الكاشوبا الغنيّة، لكننّا لا نتناول إلاّ تلك الفقيرة المكوّنة من بعض الحبوب وقطعة سجق".

"عندما عرضوا عليّ تلك النقود تساءلت: لماذا لا أوفّر لعائلتي طبقاً جيّداً من الكاشوبا لبضعة أشهر؟ وهكذا قبلت ودخلت في دائرة الخدعة". قلت: "إنّها المرّة الثالثة يا سيّد آلميدا التي تكلّمني فيها عن الخدعة، فهل يمكنك أن تفسّر لي ما هي تلك الخدعة؟".

عاد السيّد آلميدا للجلوس وأشعل سيجاراً آخر. كانت يداه ترتعشان بعض الشيء. لاحظت أنّه كان منفعلاً بعصبيّة. سألني: "هل تريد مزيداً من الكاشاسا؟"، فأجبته: "لا شكراً". سحب نفثةً من الدخان وتمتم وهو ينظر في عينَيّ كما لو أنّه سيخبرني سرّاً يضع شرفه وعصاميّته موضع الشكّ: "خدعة بسيطة، خدعة، لكنّ كلّ شيء انتهى على ما يرام". استأنف من غير أن يعطيني الوقت لأجيب: "هكذا جرى، إذن، كنّا في شهر كانون ثاني، أظنّ أنّه كان كانون ثاني، على كلٍّ كان الطقس بارداً، جاؤوا في الصباح بطالبةٍ اعتُقلت في الجامعة، في ذلك الأسبوع حدثت مظاهرات طلاّبية كثيرة واعتقلت الشرطة من تمكّنت من اعتقاله، ولم تسجّلهم بل كانت تدفعهم مباشرةً إلى

سجن كاشيّيس دون أن تستجوبهم أو أيّ شيء آخر. في تلك الظهيرة كسرت تلك الفتاة الجامعيّة زجاجةً وابتلعت الزجاج لكي تنتحر، كانت يائسة، كانت حسّاسة، كانت قد ضُربت وأُذلّت. أعلموني وتلقّيت الأوامر، أطلقت الإنذار فجاؤوا إلى المنتحرة، حدث اضطراب كبير لأنّ السلطات خشيت أن يُعرَف الأمر في الخارج. فتحتُ زنزانة الآنسة إيزابيل وأعطيتها معطفاً، وأوصيتها بأن تقول إنّها أخت المنتحرة. نزلت هي إلى جانب الفتاة على الحمّالة كما لو أنّ شيئاً لم يحدث وقالت إنّها ترافق أختها إلى مستشفى سانتا ماريّا. لعلك لا تصدّقني، لكن أحداً لم يهتمّ بالأمر وتركوها تخرج بسلام. لم يكن مدير السجن موجوداً وكان نائبه أحمقَ يخاف بصورة لا تصدّق. ركبت الآنسة إيزابيل سيّارة الإسعاف مع أختها المزعومة ودخلتْ بسلام إلى غرفة الإسعاف ثمّ ذهبت لشأنها كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. هذه هي الخدعة، هكذا تمّت".

كانت جبهة السيّد آلميدا مرصّعة بالعرق. لقد قدّم اعترافات عن حياته، ورجاني بعينين متوسّلتين أن أفهم موقفه. وأنا فهمته. فهمت تماماً ذلك العجوز من الرأس الأخضر الذي كان ديموقراطيّاً على طريقته الخاصّة وشارك في خدعة كما قال من أجل أن يستطيع هو وعائلته تناول طبق كاشوبا غنيّة. فلربّما كان هذا سرّ حياته كلّها، وقد باح لي به. أثار في نفسي الشفقة، تناولت من سترتي منديلاً من ورق وأعطيته إيّاه، فجفّف به عرقه وقال: "هل تريد سماع المزيد يا صديقي؟".

نظرت إليه وتناولت قطرةً أخرى من الكاشاسا لأعطيه مزيداً

من الثقة، وأجبت: "بالطبع، أريد أن أعرف من الذي أعطاك تلك الأوامر"، فأجاب ببساطة: "المنظّمة". عقّبت قائلاً: "لا بدّ أنّ لتلك المنظّمة وجهاً، أريد أن أعرف عمّن تتكلّم". حكّ السيّد آلميدا رأسه وسألني: "هل عليّ حقّاً أن أخبرك به؟" فقلت: "إن شئت، لأنّه أمر ضروري بالنسبة لي، ضروريّ بالفعل". حكّ السيّد آلميدا رأسه من جديد واعترف قائلاً: "لا أدري إن كنت أستطيع أن أخبرك به، لكنّ وقتاً طويلاً قد انقضى وقد تغيّرت البلد، لقد مرّ وقتٌ طويل". فشجّعته قائلاً: "أخبرني إذن". سحق السيّد آلميدا بحركة بدت جازمة سيجاره داخل صحنٍ قذر، وقال وهو ينتقي حروف كلماته: "كان السيّد تياغو"، فسألته: "ومن هو السيّد تياغو وأين بوسعي أن أجده؟"، فأجاب السيّد آلميدا: "إنّي لا أعرف لقبه، لكنّي أعرف أنّه كان له ستوديو تصوير في براسا داس فلوريس، كان مصوّراً مشهوراً حتّى في الخارج، صوّر آلينتيجو[1]، وقد نُشرت كتبه في فرنسا. كان له ستوديو في براسا داس فلوريس كما أخبرتك". فقلت: "حسناً، وإن لم نجد ذلك الستوديو؟"، فأجاب السيّد آلميدا: "بسيطة، يكفي أن تسأل جاره الجزّار في الزاوية، كان ذاك الجزّار يعرفه وأعتقد أنّه يعرف كيف يعثر عليه. ذاك الجزّار يعرفني أيضاً لأنّي أذهب إليه من حين لآخر لأشتري اللحم حين أريد أن أصنع كاشوبا غنيّة. وأنت تعلم أنّنا لا نستطيع طبخ كاشوبا غنيّة في أكثر الأحيان".

نظرت إليه ونظر إليّ. قال: "أحسب أنّ محادثتنا قد انتهت"، فأجبت: "وأنا أيضاً أحسب ذلك. هل تعلم يا سيّد آلميدا أنّك تتحدّث

---

١ منطقة في البرتغال.

مثل الإنكليز؟"، فأجاب: "لا أعرف الإنكليز، وأنا لست إلاّ رجلاً من الرأس الأخضر، على الأقل كنت من هناك، أمّا الآن فلا أعرف ماذا أنا. إنّني أعيش في هذا الحيّ من الضاحية، لأنّي لا أعرف إلاّ الضاحية".

نهضتُ وتوجّهت نحو الباب. مدّ السّيد آلميدا يده إليّ. خرجت إلى الممرّ الخارجيّ فاصطحبني. قلت وأنا أنزل الدرجة الأولى: "وداعاً يا سّيد آلميدا"، فقال: "وداعاً، وكنت سأرحّب فيما لو ناديتني العمّ توم. فساعي البريد فقط يناديني السّيد آلميدا"، فقلت وقد بدأت بالنزول: "اعتبرني ساعي بريدك، لكن لا تقلق فلن أقرع بابك مرّةً أخرى". استند إلى الدرابزين وقال بصوت منخفض: "لا تظنّن أنّي شيوعيّ، سيكون هذا خطأ. قمت بتلك الأعمال طمعاً بكاشوبا غنيّة، لكنّي استلطفت تلك الفتاة".

وصلت إلى الساحة المستديرة ونظرت حولي. لم أجد ظلّ تاكسي. وأيّ تاكسي بوسعها أن تقف في ريبوليرا؟ وجدت أنّ الباص الذي أقلّني مازال واقفاً في رأس الخطّ، وقد كتب على واجهته: الرحلة القادمة في الساعة العشرين. كانت الأبواب مفتوحة. صعدت واسترخيت، فهناك ساعة فقط من الانتظار.

٥

الدائرة الخامسة

تياغو. لشبونة. صورة

وقف الترام أمام محلّ سيستر للحلوى. انتهزتُ الفرصة لأحتسي فنجاناً من القهوة. حيّاني النادل كأنّه يعرفني. ربّما كنت أعرفه أنا أيضاً، لكنّي لم أتذكّره. ابتسمت له وأشرت بانحناءة من رأسي، وتركت له خمسين "سكود" بقشيش ثمّ عبرت شارع دا اسكولا بوليتيكنيكا حتّى مفرق مونتهْ أوليفاتشي. كان شارعاً شديد الانحدار مرصوفاً بحجارة الغرانيت، شديد الانزلاق خاصّةً في جوّ ممطر كهذا الجوّ. رفعت قبّة سترتي وتابعت نزولي. مررت أمام المعهد البريطانيّ، الزهريّ والأبيض وذي أبراج الطوب، فتذكّرت صديقة لي كانت تدرّس فيه، كانت ثرثارة، ثيابها رثّةٌ بعض الشيء لكنّ معاشرتها كان أمراً رائعاً خاصّةً أنّها كانت تحضّر بعد ذلك مائدةً ولا أروع منها. في ذلك الوقت كنّا نذهب إلى شاطئ عين دا تيلها حيث لا نجد أحداً سوى الصيّادين وكلابهم العجّز بألوانهم الصفراء مثل الصدأ. وهنا تذكّرت كلاب السيّد آلميدا.

كانت براسا داس فلوريس مقفرة. توقّفت سيّارة مرسيدس أمام مطعم فاخر يجب قرع الجرس قبل الدخول إليه، ترجّل منها سيّدٌ يرتدي ملابس زرقاء وسيّدةٌ بملابس ورديّة. كلّ ما كنت آمله هو أن أجد محلّ الجزّار مفتوحاً. كان مفتوحاً. فالمحلاّت في ذلك الحيّ تغلق أبوابها في وقت متأخّر. كان الجزّار يلفّ فخذ خروف في قطعة ورق مزيّتة. فكّرت أن ألعب لعبة كبيرة فقلت

بالاسبانيّة: "hola, buenas tardes"[1]. نظر إليّ الرجل بدهشة، وهو حتى لو لم يكن يتكلّم الإسبانيّة فهو يفهمها حتماً. كان له وجه كبير مستدير بدين، كما يجب أن تكون رؤوس الجزّارين، وكانت تخطّ أنفه بعض العروق الزرقاء. ظننت أنّ هذا بسبب تناوله الكثير من اللحم. وضع فخذ الخروف في الثلاّجة وسألني بِمَ يمكن له أن يفيدني، فقلت بإسبانيّتي الركيكة: "معلومة، معلومة بسيطة. إنّني أبحث عن السيّد تياغو". نظر إليّ الجزّار نظرةً جدّية واتّخذ وجهه تعبيرَ دهشة ثمّ أجهد إسبانيّته البائسة وسألني: "quién es y?"[2] فقلت متصنّعا السذاجة: "كيف، إنّك تعرفه أحسن المعرفة، إنّه مصوّر كبير، كان لديه ستوديو هنا قبل سنوات، السيّد تياغو، المصوّر". بدأ يقطّع شرائح فخذ صغير من اللحم المقدّد ثمّ قال متأمّلاً وكأنّه يكلّم نفسه: "سآخذ هذا الجامبو إلى البيت للعشاء، إنّه من منطقة دا شافيز، هل تحبّ الجامبو؟"، قبلتُ شريحةً منه على سبيل المجاملة ووافقته على أنّه لذيذ بالفعل، هذا رغم أنّه لا أذع شيئاً ما، أعتقد أنّه أضيف إليه كثيرٌ من توابل الباربيكا[3]، وقلت: "إنّنا في إسبانيا نخمّر الجامبو تحت الثلج، الجامبو الجبليّ أعني"، فسأل: تحت الثلج؟ لم أسمع بهذا من قبل. نحن أيضاً لدينا ثلج في الشتاء، على الأقلّ على جبل دا إستريلا، هناك في الشمال، لكنّنا لا نضع الجامبو أبداً تحت الثلج. ثمّ عفواً، لماذا تريد البحث عن السيّد تياغو؟".

١ مرحباً، مساء الخير. (م)

٢ من هو؟ (م)

٣ نوع من التوابل الحارّة من مسحوق الفليفلة. (م)

جاءني إيحاء مفاجئ. "لأنّني صحفيّ في جريدة إل بايز، وأنا بحاجة لصوره، إنّنا نجري تحقيقاً واسعاً هناك في إسبانيا". نظر إليّ وأسند مرفقيه إلى الطاولة الرخاميّة ثمّ قال والبلغم في فمه: "لم أفهم". "إل بايز"، كرّرت، "ألا تعرف جريدة اسمها إل بايز، إنّها أهمّ جريدة في شبه الجزيرة الإيبيريّة برمّتها". نظر إليّ الجزّار عندها بعينين بدتا لي بَقَرّيتيْن، ثمّ أجاب بلهجة تنمّ عن الضيق: "أنا لا أعرف من الجرائد إلاّ ما ألفُّ به اللحم".

بدأت الأمور تتعقّد، ولم أدرِ ماذا أضيف. لذلك حاولت أن أنقذ الموقف فقلت: "هل لي بشريحة جامبو أخرى؟"، فقدّمها لي في ملعقة وسألني بطريقة حازمة: "حسناً؟"، في تلك اللحظ جاءتني فكرة أخرى من تلك التي تلهمها ربّات الشعر، فتذوّقت الجامبو وتمتمت: "هل تعلم من الذي أرسلني؟ حسناً، لقد أرسلني السيّد آلميدا، أو العمّ توم إذا شئت". عند سماع الاسم انفرجت أسارير الجزّار عن ابتسامة عريضة وقال: "العمّ توم، العمّ توم ذلك اللعين". جفّف يديه بمئزره الأبيض وقال: "ليتك قلت هذا من قبل، لأنّ السيّد تياغو قد انتقل إلى شارع دوم بيدرو كوينتو، إلى جانب إطلالة سان بيدرو دي آلكنترة، توجد لافتة نحاسيّة فوق الباب، يمكن له الآن أن يفتخر بهذا، وقد كتب على اللافتة: عالم التصوير".

كانت اللافتة على الباب جميلة، كُتب عليها "العالم والصورة". قرعت الباب ففُتح في الحال. بدا لي أنّ المدخل كان على الطراز القوطيّ البرتغاليّ بأقواس حجريّة في السقف ورواق آجرّيّ بطراز القرن السابع عشر. تهيّأ لي أنّي موجود في بيت رسّام من معارفي.

لكنّي كنت هناك لسبب هامّ، وليس لعشاء بين أصدقاء. استقبلتني سكرتيرة ترتدي تنّورة قصيرة فوق ساقين بدينتين وسألتني عمَّ أريد، فقلت: "أريد السيّد تياغو"، فسألتني عن اسمي فقلت ببساطة: "إيزلوفاكّي". دعتني السكرتيرة إلى صالة صغيرة مؤثّثة بذوق رفيع وقد وضعت على جدرانها صور لم أحاول أن أنظر إليها. قالت إنّ السيّد تياغو سيكون مشغولاً لمدّة ربع ساعة في التقاط صور أزياء. فجلست وأشعلت سيجارة وبدأت بقراءة مجلّة إخباريّة.

ربّما كان تياغو في عمري أو أصغر منّي ببضع سنين. من المستحيل تحديد ذلك. كان شعره محلوقاً على الصفر، يرتدي سترة من الكتّان الخفيف ويضع فولاراً هنديّاً حول عنقه. كان رجلاً أنيقاً بالفعل ويدخّن سيجارة في مبسم عاجيّ طويل.

قال: "مساء الخير، هل أنت من طرف الوكالة؟"، قلت: "لا". قال: "العفو، لأنّني كنت بانتظار ناقد من وكالة يريد كتابة مقالة عن معرضي". أطفأت سيجارتي ونهضت واقفاً وأجبت: "لا، إنّني هنا لأسباب خاصّة تتعلّق بشخص عرفتَه قبل سنين عديدة". بدت عليه علائم الدهشة لكنّه لم يظهر أيّ تأثّر. قال: "تفضّل إلى مكتبي فالحديث هناك أفضل من الحديث في هذه الصالة".

قادني عبر ممرّ يؤدّي إلى رواق يؤدّي بدوره إلى فسحة واسعة الأرجاء عالية السقف مرفوعة على أعمدة من الغرانيت. ظهر المكان كأنّه مقصفٌ في دير، ولربّما كان بالفعل مقصفَ دير قديم. هبطنا على درج من حديد مدهون بالأخضر ثمّ أجلسني على أريكة موضوعة إلى جانب أريكة أخرى في وسط المكان. كانت آلات التصوير منتشرة

في جميع الأرجاء موضوعة على حواملها مع ستائر قماشيّة بجميع الألوان ومظلاّت بيض في داخلها مصابيح. كانت الجدران مكسوّة بصور ملوّنة لم أتمكّن من تمييزها.

"حسناً؟" سألني وهو يلفّ قدمه على القدم الأخرى. "حسناً، جئت من أجل إيزابيل". ظهرت الدهشة على وجهه ثم أصبحت ملامحه ساخرة. فكّ عقدة فولار العنق ووضعه على ساعد الأريكة. "إيزابيل"، قال بلهجة تأمّليّة، "إيزابيل، لقد عرفتُ يا سيّدي العزيز عشرات النساء باسم إيزابيل، هذا اسم شائع في البرتغال، إيزابيل ماذا، ممثّلة، موديل، أو ماذا غير ذلك؟"، "ماذا غير ذلك" قلت أنا. فقال: "وضّح كلامك". أظهرتُ معالم الصبر وقلت: "سأوضّح لكي تفهم الأمر تماماً. إيزابيل هذه يا سيّد تياغو كانت تسميّ نفسها ماغدا وكان هذا اسماً حركيّاً وأعتقد أنّك تعرف كلاً من اسمها الحقيقيّ واسمها الحركيّ. ولنقل إنّ إيزابيل المدعوّة ماغدا قد لا تدخل كامرأة في كلّ هذه القصّة أو أنّها قد تدخل. ألا يوحي لك هذا بشيء؟". تخلّى عن ملامحه الساخرة واستعاد ملامح الدهشة، وقال: "وضّحْ الأمر"، فواصلت: "حسناً سأقدّم مزيداً من التوضيح. قبل سنين عديدة، ولنقل قبل حوالي ثلاثين سنة، كانت ايزابيل المدعوّة ماغدا في سجن كاشيّيس السياسّي، وكنت أنت يا سيّد تياغو من المنظّمة ولا أدري هل كان هذا يعني الحزب الشيوعيّ السريّ أو حزباً سرّياً آخر بما أنّ كلّ الأحزاب كانت سرّيّة خلال ديكتاتوريّة سالازار. حسناً، قمت أنت وقتها يا سيّد تياغو بتهريبها من السجن بدل فتاة أخرى وبعد أن وصلت إيزابيل إلى مستشفى سانتا ماريّا قمت بتبديد

آثارها وأنت تعلم أين هي آثارها، إنّك تعرف بعض المعلومات وهذا ما أريد أن أعرفه أنا أيضاً".

غيّر المصوّر وضع ساقيه وأشعل سيجارة داخل المبسم العاجيّ الطويل. نظر إليّ بصمت وهو يفحصني من قمّة رأسي إلى أخمص قدمي، ثمّ سألني: "هل أنت صحافيّ؟". سمحت لنفسي بإطلاق ضحكة عابرة. لم أرغب في إظهار أيّ نوع من السخرية، رغم أنّ السؤال يدعو إلى السخرية. وهكذا فقد أجبته: "لا أبعد منّي عن هذا، يا سيّد تياغو إنّك لم تحزر أبداً. أؤكّد لك أنّ الموت هو منعطف على الطريق، والشخص الميّت ليس إلاّ كشخص لا يمكن لنا أن نراه". وهنا سأل بمزيد من الدهشة: "لماذا إذن، وما هو الهدف؟"، فقلت: "لكي أصنع دوائر تدور حول نفس المركز، وأصل في النهاية إلى المركز". قال: "لا أفهم"، فأجبت: "إنّني أعمل برماد ملونّ على صنع دوائر صفراء وزرقاء، كما يفعل أهل التيبت مثلاً، وأحاول بلوغ المركز بتضييق الدوائر حوله". فسألني: "وما هو الهدف؟". أشعلت أنا أيضاً سيجارة وأجبت: "الأمر بسيط، لأبلغ المعرفة، ولا بدّ أنّك تعرف، أنت الذي تصوّر الواقع، ماذا تعني المعرفة".

توجّه المصوّر نحو رفّ لا بدّ أنّه أرشيف، نبش داخل مصنّف وبحث فيه مطّولاً وعاد ومعه بضع صور مدّ يده إليّ بواحدة منها. قال: "انظر إلى هذه الصورة، الصورة هي شيء يتجسّس علينا، بل ربّما يتعقّبنا ويلاحقنا. انظر إلى هذا الطفل الجالس على بطّانيّة وعلى شعره شريطة، ذاك هو أنا". صمت برهة ثم أضاف: "لكنّي أتساءل الآن هل ذلك هو أنا؟ هل كنت أنا ذلك حقّاً؟ هل كنت أنا

هكذا؟ هل كان ذاك ما أدعوه اليوم تياغو والذي يعيش طيلة النهار في جلدتي؟"، ثمّ مدّ يده إليّ بصورة أخرى فيها هذه المرّة طفل وطفلة في حقبة أحدث. ابتسم وهو في وضع التأمّل وقال: "انظر إلى هذين الطفلين، يركبان على درّاجة صغيرة، تلك في الخلف تعانق الآخر وتطلّ برأسها ببراءة لتبتسم أمام العدسة. التقطتُ هذه الصورة بنفسي قبل سنين عديدة، وهذان كانا ولدَيّ، وأتساءل الآن: هل هما ولديّ نفسهما الآن؟ أجيبك أنّ هذا غير ممكن ويجب أن أقوم بمزيد من البحوث حول الذي حدث بعدها، لكن ماذا حدث بعدها؟". صمت برهةً أخرى ثمّ هتف: "آه، لو تعلم كم تصبح الصورة صعبة عندما يدرسها الفلاسفة، ومع ذلك فأنا مصوّر، وأقول في لحظات الزهوّ إنّ لي أنا، أنا قبل الجميع، كلّ الحقّ في إبداء رأيي، لكنّي لا أفلح في ذلك لأنّ الصورة تسبقني وتعلو عليّ وتتجاوزني، فأفكّر عندها: إنّ صور حياة ما هي زمن موزّع على عدّة أشخاص أو إنّها الشخص نفسه وقد توزّع على عدّة أزمنة".

حدّقت فيه وابتسمت له. كانت ابتسامة صداقة. رغم أنّي كنت أشعر في داخلي بهياج طفيف، كأنّه حكّة في روحي. قلت له: "اسمع يا سيّد تياغو، أعلمُ أنّك مفتونٌ بالصور وهذه مهنتك وأنت تتأمّل في الأمر، لربّما كنت قد تأخّرت بعض الوقت عن هذا، ولربّما كان عليك أن تبدأ بالتفكير في هذا من قبل، لأنّ على الإنسان أن يفكّر مليّاً قبل أن يقوم باختيار المنحى الأساسيّ لحياته. لكنّي أعذرك، فأنا أيضاً بدأت بالكتابة قبل أن أفكّر ما هي الكتابة بالفعل، ولو فهمت هذا من قبل فلربّما ما بدأت أبداً بالكتابة. مهلاً، على كلٍّ ليست هذه

هي المشكلة. فلنأتِ إذن إلى المشكلة الحقيقيّة".

نظر إليّ المصوّر وبدا لي أنّ معالم السخرية تلوح على وجهه من جديد. كان يمسك بصورة ثالثة في يده وكانت مائلة بين أصابعه كأنّها ورقة لعبِ الشدّة، لكنّه لم يعرضها عليّ، بل قال لي: "دعني أتفلسف، حول هذه الصورة الأخيرة على الأقلّ، فأذكر أنّي سمعت أحدهم يقول إنّ الصورة هي الموت لأنّها تُثبّتُ لحظةً لا تتكرّر". مرّرَ الصورة بين أصابعه تماماً كما في لعبة الورق، ثمّ تابع وقال: "لكنّي أتساءل هنا: وماذا إذا توقّفت الحياة التي تلازمنا، توقّفت في لحظة ما لتنظر إلينا بسخرية؟ ماذا لو حسمت أمرها وتوقّفت وفاجأتنا، هي ثابتة ونحن نعيش في تحوّل وحركة؟ عندها أفكّر أنّ الصورة، مثلها مثل الموسيقى، تغتنم لحظةً لا نستطيع عادةً أن نغتنمها، أي ما كنّا عليه وما يمكن لنا أن نكون عليه، ولا يمكن عادةً فعل أيّ شيء ضدّ هذه اللحظة لأنّ معها من الحقّ أكثر ممّا معنا، لكن أيّ حق؟ ربّما كان الحقّ الكامن في تغيير هذا النهر الذي يجري ويجرّنا معه، حقّ الكبرياء والزمن الذي يتسلّط علينا بينما نحاول أن نتسلّط عليه". صمت برهةً كما يصمت عادةً، وسحب شيئاً من دخانه، ثمّ تابع: "الحياة ضدّ الحياة، الحياة في الحياة، أم الحياة على الحياة؟ ربّما كان هذا لغزاً أتركه لك وأنت تشاهد هذه الصورة؟"، مدّها إليّ وانتظر ردّة فعلي. نظرت إليها فرأيت إيزابيل. كانت ترتدي معطفاً قاتماً طويلاً يصل إلى أخمص قدميها. لم يكن على وجهها أيّ تعبير، سوى القليل من الدهشة. كانت واقفة في طابور المسافرين في أحد المطارات وإلى جانبها حقيبة صغيرة.

نهض المصوّر ودعاني لمرافقته. قال لي: "أريد أن أريك معرضي الذي سأفتتحه خلال الأسبوع المقبل في لندن". بدأت بمشاهدة الصور على الجدران. كانت صور "بولاروید" آنيّة تمثّل وجوهاً ومناظر طبيعيّة. وضع إصبعه على شفتيه كما لو أنّه يريد المحافظة على سرّ أظنّ أنّه ليس حتماً السرّ الذي كان يريد أن يبوح به. قال: "انظر، لقد صوّرت الواقع بآلة بولاروید، وهي آلة رائعة اشتريتها في الولايات المتّحدة، سأسمّي المعرض واقع البولاروید". مدّ إحدى ذراعيه وأشار إلى بعض الصور وقال: "هل ترى؟ هذا جسر بروكلين، هذا حادث سير في مانهاتن، هذه فتاة زنجيّة تحت تأثير جرعة زائدة، هذا طفل يعاني من سوء التغذية في أثيوبيا. انظر إلى البقيّة وحدك". درت في أرجاء الغرفة الضخمة. قلت: "مهمّ بالفعل، بل رائع بالفعل في نهاية الأمر". رمقني من جديد بنظرة أحاطت بي من رأسي إلى قدميّ كأنّني تمثال وقال لي: "سأصوّرك بآلة البولاروید. هل تريد أن تكون الموضوع الأخير في معرضي؟"، فقلت: "إنّني أقبل العرض بكلّ سرور، ولنُسمِّه تحدّياً أو مبارزة كما كانوا يفعلون في القرن الثامن عشر". أجلسني السيّد تياغو على مقعد ووضع ورائي خلفيّة مصطنعة تصوّر منظراً بحريّاً وشجرة صنوبر. أوصاني أن أعرض صورة إيزابيل بطريقة واضحة فعرضتها. قال لي: "لا تبتسم، فأنا أكره ابتسامات الصور". أخذ آلته البولاروید الضخمة والتقط الصورة. عندما لفظتْ الآلةُ الصورةَ حرّكها في الهواء ليجفّفها، ثمّ نظر إليها وعرضها عليّ. ظهر في الصورة المقعد والخلفيّة البحريّة وصورة إيزابيل في المقدّمة. نظر تياغو إلى الصورة بانتباهٍ عارم. قال: "إنّك

لا تظهر في الصورة، كأنّك غير موجود"، فقلت: "في الواقع". سألني: "ماذا في الواقع؟"، فأجبت: "في الواقع". سألني: "لكن من أين جئت أنت؟". نظرت إليه وابتسمت. "من مكان مشرق جدّاً، مشرق بطريقة أعمت عدسة التصوير. على كلٍّ سآخذ هذه الصورة معي"، وضعت الصورة في جيبي وسألت: "وإيزابيل؟". مدّ يده نحوي وأجاب: "سافرت إيزابيل في المساء نفسه إلى ماكاو، استقلّت طائرة متوجّهة نحو هونغ كونغ، أرسلتْها إلى هناك ماغدا، ماغدا الحقيقيّة، أعتقد أنّها وجّهتها لعند راهب كاثوليكيّ كان يعيش على الأرجح في ماكاو في جزيرة كولوآني، للأسف لا أذكر الآن لمن ينتسب، لا أعرف اسمه، ربّما مازال حيّاً، ربّما كان بوسعك أن تُطْبق حلقةً أخرى حول الشخص الذي تبحث عنه، أمّا أنا فليست لديّ أيّة معلومات أخرى، إلى اللقاء". وأردف: "اعذرني إن لم أرافقك إلى الأعلى، لكن يمكنك أن تجد الطريق بسهولة. انتبه إلى صورتك، ذات يوم ستجد أنّك ستظهر في العدسة".

٦

الدائرة السادسة

ماغدا. راهب. ماكاو. رسالة

كان شارع الحديقة مقفراً. كان هناك حارس صينيّ عجوز يعتمر طاقيّة بذؤابة من البلاستيك كُتب عليها: مغارة كامويز.

قال الحارس: "انتهى وقت الزيارة، أنا بصدد إغلاق الأبواب". جرّبت أن أقول مبتسماً: "لا أحتاج إلى وقت طويل، مجرّد زيارة عابرة إلى مغارة كامويز". أجاب بكلام منطقيّ: "ولماذا تقوم بزيارة مغارة كامويز في هذه الساعة؟ تعال صباح الغد وستجد الحديقة نضرة والمغارة نضرة. صباح الغد بوسعك أن تنعم بالنضارة، أمّا الآن فلن تجد إلاّ الخفافيش النائمة". أجبت: "إنّني أفهم هذا، لكنّ إلهاماً جاءني وعليّ أن أزور المغارة هذا المساء بالذات". رفع الحارس طاقيّته وحكّ رأسه. قال: "لستُ أفهم". فسألته: "ما اسمك؟". ابتسم ابتسامةً خجولة وأجاب: "اسمي في النفوس مانويل، لأنّ أسماء النفوس هنا أسماء برتغاليّة، لكنّ اسمي الحقيقيّ هو الاسم الصينيّ وهو مختلف". لفظ اسماً صينيّاً وابتسم من جديد، فسألته: "وماذا يعني اسمك بالصينيّة؟". أجاب: "يعني الضوء الذي يلمع على الماء". بدت لي هذه فرصة رائعة فأخذته من ذراعه. "اسمع أيّها الضوء الذي يلمع على الماء، أنا أيضاً عندي ضوء يلمع، وهذا الضوء بالذات هو الذي أمرني بدخول المغارة هذا المساء". مددت يدي وأشرت إليه نحو نجمة مضيئة، نحو أشدّ النجوم ضياءً، وقلت: "هل ترى هناك في الأعلى؟ من هناك يأتيني الإلهام أو الاقتراح،

سمّه ما شئت". فوضع ذراعه في ذراعي ومدّ إصبعاً وقال: "النجوم تهدي، تهدي لكلّ شيء، سوى أنّنا نحن البشر المساكين لا نعرف". فواصلت: "إنّك تواسيني يا صديقي لأنّك تفهمني. هل تعلم أنّني تلقيت رسالةً من ذلك الضوء البرّاق، اسمه الشعرى". قرّب ذراعه الممدودة نحوي ونظر إليّ متسائلاً. "إنّك لا تعرف سماء ماكاو"، قال كما لو أنّه يعتذر، "إنّك حقّاً لا تعرفها. فهناك في الصينيّة اسم لتلك النجمة التي تسمّونها باسم مختلف باللاتينيّة. أظنّ أنّ اسمها في لغتك كانوبو، تلك هي نجمة كانوبو. لقد حدتَ عن الطريق يا صديقي لأنّ نجمتك لا يمكن أن تُرى من هذا الخطّ. إنّني أفهم السماء وقد درستها". قلّدته وبدأت بحكّ رأسي وقلت: "حسناً، سأنظر إلى الأمر بروحٍ رياضيّة، ومع هذا فقد وصلتني رسالة، من الشعرى أو من كانوبو، لا أعلم من الذي أرسلها لي، لكن عليّ أن أذهب هذا المساء بالذات إلى تلك المغارة التي احتفل فيها ذلك الشاعر الكبير الأعور بإقامة المسيحيّة خلال القرن السادس عشر".

نبش في جيبه وسحب حزمة من المفاتيح وقال بمنطقٍ لم أفهمه: "لا يأتي إلى هنا إلاّ صينيّون يحملون أقفاصاً صغيرة. وكلّ شخص يحمل في قفصه عصفوراً ويحفظه إلى جانب عصفورِ جارٍ من جيرانه. هذه هي العادة في الصين. وهكذا فإنّ العصافير عندما تتحاور فيما بينها تُسهّل الصداقات بين أصحابها لأنّها تمكّنهم من إقامة الصداقات وكذلك بإجراء الحوار فيما بينهم". صمت لبرهة ثمّ نظر إليّ بحزنه المعهود وواصل قائلاً: "أرى أنّك لا تحمل أيّ قفص كما أنّه لم يبقَ أحدٌ يحمل قفصاً. بقي في الحديقة اثنان من

لاعبي الماشونغ[1] القدامى، بوسعهم أن يخرجوا من الباب الثانويّ الصغير، فماذا يمكنك أن تفعل في مثل هذه الساعة سوى أن تجد الخفافيش؟". أصررت على موقفي وقلت: "إعلم يا صديقي أنّني بحاجة لدخول المغارة هذا المساء، ويمكن لي أن أخبرك أنّ هذا جانب من جوانب مصيري وقدري الذي تسيّره النجوم، وأنت تؤمن بالنجوم، فدعني أدخل رجاءً وسأخرج بعدها أنا أيضاً من البوابة الثانوية. دعني رجاءً، فلربّما تمكّن شاعر القرن السادس عشر، ذاك الأعور، من تقديم يد المعونة لي في هذا المساء بالذات وفي هذه الحديقة الفوّاحة بعبق الماغنوليا". نظر إليّ الحارس نظرةً بدا لي أنّ فيها رثاءً وشفقة وأردف: "لا يفوح من هذه الحديقة عبق الماغنوليا بل هي مضمّخة بعطن البول". "رائع جدّاً"، وافقته بهيئة المقتنع وتابعت قائلاً: "سأبقى في هذه الحديقة المضمّخة بعطن البول تحت ضوء تلك النجمة التي تقود رحلتي الأرضيّة هذه، وإن كنت حقّاً لا أحمل عصافير في القفص فإنّي باقٍ هنا لأتبع قدري".

تنحّى الحارس جانباً ومدّ لي مصباحاً كهربائيّاً صغيراً وقال: "أظنّ أنّه سيساعدك ويمكنك أن تتركه عند البوابة الثانوية عندما تغادر". غذذتُ السير على طول الشارع وأنا أتنفّس بعمق لأتأكّد من وجود النتن، ولم أجد أيّ نتن بل هبّت نسمة باردة خفيفة تحمل رائحة البحر. رأيت أسفل المصباح شخصين صينيّين يلعبان الماشونغ، حيّيتهما فردّا لي التحيّة بإشارة من رأسيهما. كان أحدهما يلعب بصفٍّ من أربعة تنانين بيض في مجموعة التشريفات العليا، بينما

١ Mahjong لعبة مهارة صينية شائعة أيضاً في جنوب وشرق آسيا. (م)

كان الآخر يلعب بشخوص أخرى. فكّرت أنّني في ذلك المساء بحاجة إلى التنانين وإلى الشخوص، وتابعت سيري باتّجاه المغارة. عندما وصلت إلى منتصف الطريق سمعت صفرةً ورائي ورأيت أنّ أحد الرجلين يناديني. سألني: "هل تريد المساعدة؟ لأنّه ليس لدينا متفرّجون بينما تحتاج لعبة الماشونغ إلى متفرّجين". أشرت بيدي بالنفي وتابعت السير في طريقي. وصلت إلى مدخل المغارة وأشعلت المصباح الكهربائيّ الذي أعارني إيّاه الحارس.

دخلت إلى المغارة ببساطة كما يدخل المرء إلى بيته. فكّرت أنّ بوسعي أن أشعل سيجارة وعندما أشعلتها سمعت وَطْ خفاش. قمت وسط ذلك الظلام الدامس بتوجيه حزمة مصباحي الضوئيّة فقال لي الخفاش موطوطاً: "آلو، يا حلو، هل تسمعني؟".

كان ذاك صوت ماغدا.

أجبت: "آلو، أسمعك"، فسأل الخفاش: "من أين تكلّمني؟"، فأجبت: "من ماكاو، إنّي في ماكاو داخل مغارة، وأنت يا ماغدا من أين تكلّمينني؟"، أجابت: "من المكان المعهود، احزر". تمتمت قائلاً: "لا أستطيع"، فقالت: "هذا سهل، أسهل ممّا تعتقد. لقد تعارفنا في هذا المكان بالذات"، فقلت: "اسمعي يا ماغدا، إنّي لا أطيق الآن حزازير المسابقات والكويتز. إذا أردتِ أخبريني وإلاّ فلا عليك"، فوطوط الخفاش: "إنّني في برازيليرا دو شادو يا أحمق، وأحتسي قهوة مثلّجة". سألتها: "من أيّ زمن تكلّمينني؟" أطلق الخفاش صوت ضحكة صغيرة، وأجاب صوت ماغدا: "من الستّينيّات يا أحمقي الكبير الجميل. من أيّ زمنٍ تريد أن تكلّمك

حبيبتك ماغدا؟". سمعت صوت قرقعة أدوات الطعام والكؤوس ثمّ وَطَّ الخفاش: "وماذا عنك، ما سبب هذا الاتّصال السارّ؟"، فقلت: "بسبب نجمة الشعرى أو كانوبو، لا أستطيع الآن أن أقول على وجه التحديد". فقالت: "كم أنت صعب! وما هو سبب وجودك في ماكاو؟"، أجبتها: "لسبب سأشرحه لك فيما بعد، لكنّي أريد الآن أن أسمع روايتك، لأنّ الرواية التي أشعتيها لا تقنعني"، فسألتني وقد تصنّعت البلاهة: "روايتي عن ماذا؟"، أجبتها: "روايتك بخصوص إيزابيل، أنت التي أشعتِ الرواية، كنت أنت مصدر كلّ الأخبار الأخيرة التي عرفناها عن إيزابيل، والآن أريد أن أسمع بصوتك الحيّ روايتك الحقيقيّة".

دوّرتُ مصباحي الكهربائيّ على جدران المغارة. كان هناك على يميني تمثال نصفي من البرونز للشاعر الأعور، وكانت تتدلّى من السقف بعض النوازل. "حسناً"، وَطَّ الخفاش، "اسمعني الآن". وجّهتُ المصباح الكهربائي إليه فأبعد مخلبه عن الصخرة وبقي متدلّياً بمخلبٍ واحد. رأيت ماغدا بصورة واضحة، كانت جالسة على أريكة من أرائك برازيليرا، وهي الآن تنادي النادل لتطلب مشروباً آخر وطلبت ماء الشعير[1]. لم يفهم النادل فشرحتْ له ماغدا الأمر قائلةً: "إنّه مرطّب من الشعير يسمّونه في فالنسيا ماء الشعير"، وأضافت: "هكذا يقول الإسبان وقد حان الوقت لأن يتعلّم البرتغاليّون أيضاً إن كانوا يهتمّون بأن يكونوا إيبيريّين حقّاً". أشعلتُ سيجارةً أخرى وتهيّأتُ للاستماع.

---

١ agua de cebada (م)

وَطَّ الخفاش وقال: "إنّ غيزابيل قد انتحرت، أعلمُ هذا عن حقّ، ابتلعت قارورتين من الحبوب، وكانت تلك آخر وجبة تناولتها، نوعاً من المسكّنات. بوسعي أن أصف لك المنظر أيضاً، اسمعني، كانت غرفة متواضعة في بنسيون صغير في كامبو دي اوريك تظهر من نوافذها كاتدرائيّة استريلا، سحبتْ الستائر وكان هناك قمر أبيض ناصع ثمّ غطّت المصباح بمنديل أزرق فازرقّ لون الغرفة، كان السرير مغطّى ببطّانيّة كروشّية كما هو الأمر في فنادق الضاحية، لم يكن عندها ماء فقرعت الجرس فجاءت نادلة عجوز، كانت بدينة يخطّ وجهها شاربان واضحان. قالت إيزابيل: 'أريد ماءً، كثيراً من الماء'، فعادت النادلة بزجاجة ماء من النوع الفاخر. قالت إيزابيل متضاحكة: 'هذه بالذات تساعد على التبوّل، لكنّي لن أكون بحاجة للتبوّل'. أجابت النادلة متحسّرةً: 'التبوّل يفيد الجميع وسيفيدك أيضاً يا آنسة إذ تبدين هزيلة ولا بدّ أنّ السموم هي سبب شحوبك، سترين أنّ زجاجة ماء فاخرة هي ما يجب تناوله من أجل إزالة السموم وإعادة اللون الجميل إلى خدّيك، كاللّون الذي كان لي عندما كنتُ في عمرك وقبل أن تستولي عليّ آلام المفاصل'. وهكذا فتحت إيزابيل الزجاجة بمائها الفاخر وابتلعت أربع أو خمس حبّات لتشعر بنوع من الهدوء، ثمّ نظرت إلى الكاتدرائيّة التي كانت بيضاء كقطعة بسكويت في سماء لشبونة، بل بدت بتفاصيلها ذات الطراز الباروكيّ كأنّها قطعة دانتيلا مشغولة. فكّرَتْ: 'لربّما حضرتني صلاة للعذراء لأنّي لم أُصلِّ منذ وقتٍ طويل'. لأنّ من يستعدّ لرحلة طويلة يحتاج إلى سند، وكانت إيزابيل بحاجة إلى سند، كان بودّها أن توجّه كلمةً

لشخص ما. لكن لمن، في ليل لشبونة الصيفيّ ذاك، حيث القمر أبيض ناصع والكاتدرائيّة مثل قطعة بسكويت؟ لمن؟ وجهتْ السؤال للمُسكّن فشعرتْ بالطمأنينة، ثمّ جلست إلى الطاولة الصغيرة قرب المغسلة وكتبت رسالة. كانت رسالة موجّهة لي، لصديقتها ماغدا. قالت وداعاً ووصفت تلك الليلة بكلّ تفاصيلها دون أن تشرح أسباب عملها، لكنّها ذيّلت الرسالة بحاشية وضعت تحتها عدّة خطوط وقالت فيها إنّ الضوء كان مزرقّاً وإنّها تنظر إلى كاتدرائيّة استريلا. هكذا رحلت ايزابيل".

تركتُ بضع ثوانٍ تمرّ وسألت: "هل انتهيتِ؟" فوطّ الخفاش قائلاً: "انتهيت"، فقلت: "اسمعي يا ماغدا، لا أعرف لماذا تخبرينني بكلّ هذه الحماقات، ماذا تنالين من هذا الهراء؟". أجابت بنبرة حادّة: "ويحك، ماذا تقول، إنّني أعرف الأمور حقّ المعرفة، إنّها الحقيقة الصافية". أجبت: "حسناً، استمعي إليّ جيّداً وسأروي لك أنا الحقيقة الصافية، فافتحي أذنيك. أنتِ كنت في الشبكة المعادية للفاشيّة ونظّمتِ كلّ شيء. كانت إيزابيل مكشوفة جدّاً وكان لا بدّ من تغييبها عن الأنظار، وقد قمتِ أنت بتأمين إخفائها وأذعتِ شائعةً بأنّها انتحرت لأسباب عاطفيّة، بل إنّك نشرت حتّى نعوةً لها في الصحيفة وطبختِ فكرة قدّاس اليوم السابع في كنيسة كاسكايس، غير أنّه حدث في لحظةٍ جميلة وبمحض الصدفة أنّ إيزابيل وقعت في شباك الشرطة السياسيّة خلال إحدى مظاهرات الطلبة، لم تكن تحمل وثائق فقالت. إنّ اسمها ماغدا، فألقوا بها مباشرةً في سجن كاشّييس دون أن يستجوبوها، خاصّةً وأن التحقيق كان يجري آنئذٍ

في مرحلة لاحقة، لكنّك تعرفين هذه الأمور أكثر منّي ولا أدري لماذا أكلّف نفسي عناء تكرارها. ذات يوم جاءت إلى زنزانتها فتاةٌ مليئة بالكدمات وابتلعت زجاج قنّينةٍ كسرتْها، هذه الفتاة انتحرت بحقّ، فقمتِ بتنظيم عملية فرارها بالتعاون مع حارس السجن ثمّ وضعتِ إيزابيل في تلك الليلة على متن طائرة متّجهة إلى ماكاو حيث تجدينني الآن".

بعد بضع دقائق من الصمت جاء صوت ماغدا وهي تتمتم وتسأل: "كيف تمكنتَ من فكّ خيوط هذه الشبكة المعقّدة؟"، فأجبت: "الأمر بسيط، لقد استعلمت وقمت بتحقيقٍ صغير". سألتني ثانيةً: "مادمت تعرف كلّ شيء فلماذا اتصلت بي؟"، قلت: "لأنّي لا أعرف كلّ شيء. أريد أن أعرفَ من هو راهب ماكاو الذي أرسلتِ إيزابيل إليه". أطلقت ضحكةً صغيرة ورفعت صوتها وتصنّعت وهي تقول: "وهل تراني مازلت أذكره؟"، شجّعتُها قائلاً: "ابذلي بعض الجهد". أجابت: "لم يصل النادل بعد، طلبت منه ماء الشعير منذ نصف ساعة". أصررت مرّةً أخرى وقلت: "ابذلي بعض الجهد، لماذا لا تكشفين أوراقك ولو لمرّة واحدة في حياتك؟"، فأجابت ماغدا متنهدّةً: "إن للتخاطر وتوارد الأفكار ألاعيب وحيلاً خدّاعة، تصل من زوايا الزمن الخفيّة. أنت مثلاً من أيّ زاوية من الزمان جئت؟" أجبت: "يجب أن يكون هذا قد حدث قبلك بكثير، فلقد مرّ وقتٌ طويل"، فقالت: "لا أدري إذن إن كنت ستعثر عليه أو إن كان لا يزال حيّاً. على كلٍّ كان اسمه الأب دومينيك، كان يدير مركزاً لمرضى الجذام في كولوآني، إلى هناك أرسلنا إيزابيل، ولا أعرف المزيد عن

الأمر". قلت: "تشاو ماغدا". بدا لي أنّ الخفاش أشار إليّ بالتحيّة بمخلبه. أطفأت المصباح الكهربائيّ وخرجت من المغارة.

كانت تُرى من أعلى الهضبة أضواءُ ماكاو وهي تنزل حتّى ميناء فيلهو. أغلقتُ البوّابة الثانويّة خلفي، تركت المصباح على الدرج ونزلت على قدمَيّ حتّى المركز. كانت الساحة مقفرة. كانت أمامي كاتدرائيّة سان بول، الواجهة فقط، لأنّ بقيّتها ضاعت خلال حريق في القرن الثامن عشر.

كان بودّي أن أستدير حول واجهة الكاتدرائيّة لأنّ الفضول كان يدفعني لذلك، لكنّي رأيت أنّ لجسدي عليّ حقّاً، ولا بدّ من تلبية حاجات الجسد، خاصّةً بالنسبة لمن يتمتّع بإذنٍ أرضيّ.

نظرت حولي بحثاً عن مطعم. في أبعد زاوية من زوايا الساحة كانت هناك لافتة بالصينيّة كُتب عليها بأضواء النيون: طعام برتغالي. توجهت نحوها. كان اسم المطعم "ليسبوا ماكاو القديمة الحديث". كان مكاناً حديثاً جدّاً له واجهة زجاجيّة عُرضت فيها بقايا كرشة بيضاء على طبق كبير. زيّن وسط الواجهة جذر جينسنغ ضخم وعليه بطاقة بالبرتغاليّة تؤكّد: "إنّنا نهتمّ بالرجولة". ظننت أنّي لا بدّ أن أجد شيئاً من طعام أوروبّي أتناوله. دفعت الباب ودخلت. كان المحلّ مقفراً. كانت هناك عجوز صينيّة متربّعة على كرسيّ ترتدي رداءً أبيض وخفّاً. حيّتني وهي تنهض. جلست إلى مائدة قذرة فقامت بهدوء، وبهدوء كبير، بتنظيفها من كلّ القذارات التي كانت عليها. سألتني العجوز بالبرتغاليّة: "هل تريد طعاماً كانتونيّاً أم أوروبّياً؟"، كانت تلوك شيئاً ما في فمها، ربّما قطعة خبز، أو أنّه بكلّ بساطة

طقم أسنانها. أجبت: "أوروبّياً، وحسب الأطباق التي تقدّمونها"، فتمتمت بلهجة منهكة: "موجودات[1] شوربة بقلة مع لحم غنم، طعام أوروبّي فقط شوربة بقلة مع لحم غنم". ثمّ حدّقت في وجهي وقامت بحركة غريبة بدا لي أنّها حركة تعوّذ، فسألتها: "ما هي هذه الحركة؟ ماذا تعني؟". دوّرت العجوز الصينيّة طقم أسنانها بلسانها ووضعته في مكانه وأجابت: "إنّك يظهر نفسٌ معذّبة، كلّك أرواح، واجب ذهاب إلى الغابة طلب تطهير من جنّ غابة".

غابت في المطبخ وعادت بعد قليل مع الشوربة وطبق الغنم سويّة، ومع الغنم كانت هناك قطع أناناس وحبّات زيتون، بدا لي هذا مقرفاً، لكنّي لم أثر أيّة مشكلة بل شرعت بتناول الطعام. على كلٍّ لم يكن طعاماً سيّئاً كما كان يبدو. كانت العجوز الصينيّة تراقبني باهتمام، كان منظرها مبهماً وهي غامضة الملامح. قرّرت في النهاية أن أسألها: "ولماذا تحدّثت عن جنّ الغابة؟ فأنا لا أذهب إلى الغابة ولست بحاجة إلى جنّ الغابة". قالت العجوز الصينيّة: "أنت فيك حاجة إلى شخص تطهيرك. أنت يبحث عن شخص لكنّ أنت مليء بأرواح، في حاجة إلى جنّ الغابة، لكنّك تفضّل على الأرجح ذلك الخنزير، ذلك كاهن كاثوليكيّ موجود خلف الكاتدرائيّة". سألتها: "لماذا تسمّينه خنزيراً؟ هل هو خنزير بالفعل؟"، أجابت: "لا يعرف، لكنّ الكاثوليك كلّهم خنزير، خاصّة الرهبان". أضفت: "لكنّي بحاجة إلى معلومة قد يعطيني إيّاها الراهب الكاثوليكيّ بينما لا يمكن لجنّ

١ حديث العجوز الصينيّة هنا وفي المقاطع اللاحقة مترجم على أساس عجمتها في الأصل الإيطاليّ. (م)

غابتك أن يعطوني إيّاها، وليست لي أيّ صلة معهم". لاكت العجوز الصينيّة طقم أسنانها ثمّ بصقت على الأرض. قالت: "أنا لا يفهم. فشرحت معلومة عن شخص، فكما قلت قبل قليل أنت يبحث عن شخص". بدا أنّ العجوز الصينيّة قد غضبت فشعرتُ بالذنب لذلك. رأيت أنّه لا يمكن لي أن أقبل بأن تغضب منّي عجوز صينيّة تضع طقم أسنان مخلخل. سألتني العجوز الصينيّة: "أنت من أين بلدك؟"، أجبتها: "من نواحي الشعرى". فكّرت لبرهة ثمّ أجابت: "جيّد، ربّما جيّد". وتابعت: "لكن لماذا أنت يبحث عن راهب كاثوليكيّ؟". أنهيت آخر قطعة أناناس ونظّفت فمي بالمنديل وأجبتها: "أنا بحاجة إلى راهب كاثوليكيّ أيّتها العجوز الصينيّة الغبيّة لأنّ راهب كاثوليكيّ فقط يعطي معلومة أحتاجها". وجدت نفسي أتكلّم مثلما تتكلّم وشعرت بالغضب أنا أيضاً.

سحبت العجوز الصينيّة الطبق من أمامي وذهبت تخفّ بخفّها إلى المطبخ. عادت ومعها زجاجة ليكيور بالمندرين وصبّت لي كأساً وقالت: "أنت يشرب، مسكين، أنت مسيح مسكين". فأردفتُ وراءها: "هذه هي الحقيقة، لقد قلتِ الكلمة الفصل أيّتها العجوز الصينيّة فأنا حقّاً مسيح مسكين. فأنتِ إذن تعرفين من هو المسيح". دوّرت العجوز الصينيّة طقم أسنانها مرّةً أخرى ووضعت يدها على قلبها وقالت: "أنا نصف مسيحيّة ونصف وثنيّة. أنت مسيحيّ فقط، أنت يحتاج كاهن كاثوليكيّ يوجد في ساحة، أنت يذهب إلى الخارج، هيّا، هيّا". سألتها: "هل تعرفين ما اسم هذا الراهب؟"، أجابت العجوز الصينيّة: "هو اعتراف وشمّ هواء في

ساحة". أصررت قائلاً: "أجل، لكن ما اسمه، اسمه؟"، لكنّها تابعت وفق منطقها وقالت: "هو لا يحبّ وثنيّين مثلي، وأنا لا يحبّ هو". سألتها: "وماذا يفعل هذا الراهب؟"، أجابت العجوز: "كان تطبيب مجذومين في كولوآني، الآن غير موجود جذام، أصبح عاطلاً عن العمل، شمّ نسيم على مقعد في الساحة".

احتسيت كأساً من ذلك الليكيور الحلو بالمندرين، دفعت الحساب وخرجت إلى الساحة.

درت حول واجهة الكاتدرائيّة ورأيت الراهب. كان جالساً على مقعد في العراء يتنعّم بالهواء الطلق. اقتربت منه وألقيت عليه تحيّة المساء. قدّم لي الكرسيّ الصغير الذي كان يسند عليه قدميه ودعاني للجلوس.

كان راهباً عجوزاً بديناً بملامح تبدو شرقيّة، ولا بدّ أنّه خليط بين البرتغاليّ والصينيّ، لكنّ بشرته كانت على ما يبدو زيتونيّة بالفعل، أو كان ذلك بسبب الإنارة الصفراء الصادرة عن مصابيح النيون التي تضيء واجهة الكاتدرائيّة من الطرف الآخر والتي تصل انعكاساتها على شكل أشعّة قرمزيّة. كان رداؤه مشموراً بعض الشيء ويتكشّف عن قدميه المتصالبتين، وبما أنّه لم يكن يرتدي سروالاً تحت الرداء فقد بدا كأنّه يستعرض عضلات ساقيه الصلبة المرداء.

"هل تريد الاعتراف يا بنيّ؟". جلست وأجبت: "يبدو لي أنّ الوقت متأخّر، لا بدّ أنّه متأخّر". كان في يده سيجار ضخم فقال: "لا يتأخّر الوقت أبداً بالنسبة للاعتراف". أجبت: "لكنّي قمت بكلّ ما يجب أن أقوم به، وأصبحت لي زاويتي في هذا الكون". سحب

نفثة كبيرة من السيجار ونفثها في وجهي، ثمّ حكّ ساقيه بعناية وقال لي: "الكون كبير لكنّك الآن هنا في هذه الزاوية من العالم، والوقت ليس متأخرّاً على الإطلاق أيّها الإنسان المصنوع من طين". برّرت موقفي وقلت: "لقد فقدت كلّ طيني وتحوّلت إلى صفاء النور". حكّ ساقيه من جديد وتمتم: "فسّر أقوالك". قلت: "اعتبرني نجماً ساطعاً، هل هذا واضح؟"، فسألني الراهب: "جنيّ غابة؟ هل ربّما أنت وثنيّ؟"، أجبت: "لا، لنقل إنّ ما أحدّثك عنه يُصدِر بنبضٍ سريع ومتكرر إشعاعات على كلّ أطوال الموجات المضيئة. هيّا بنا أيّها الأب فالأمر أمر نيوترونات". هنا أجاب الراهب: "إنّي أشتمّ في هذا كلّه رائحة الوثنيّة، فهل تريد أن تعترف أم لا؟".

بدأ الوضع يتعقّد، لكنّي تعوّدت على الأوضاع الصعبة. دقّقت النظر فيه فبدا لي فجأةً أصغر ممّا كان، لأنّ الضوء المعكوس في الساحة جعل بشرته تبدو ملساء دون تجاعيد. "هل أنت كاثوليكيّ؟". "أنا كلّ الذي تريده، لقد تعمّدت من أبوين مسيحيّيْن كاثوليكيّيْن رسوليّيْن رومانيّيْن وكان عمري سبعة أيّام". سحب الراهب نفثةً أخرى من سيجاره الضخم، لكنّه وفّرني هذه المرّة ونفث الدخان في الهواء. بدا أنّه يفكّر. فكّر طويلاً وحكّ ساقيه ثمّ سألني: "منذ متى لم تعترف يا بنيّ؟". "البتّة"، أجبتُ، "البتّة". اتّخذ وضع التأمّل وسأل: "يعني أنّك لم تعترف أبداً طيلة حياتك؟"، فأكّدت: "هذا هو الواقع، لم أعترف أبداً طيلة حياتي"، ثمّ أضفت: "لكن يمكن لي أن أعترف هذا المساء، بما أنّ غداً هو عيد ميلادي". قال الراهب: "غداً هو يوم الاعتدال الخريفي، وهذا ليس مناسباً، هناك جنون في ذلك اليوم،

كما تتضخّم فيه الأمواج". فسألت: "العفو، هل تعمل هنا راهباً أم منجّماً؟ أرجوك أن تتحلّى بالصبر، الآن وقد قبلتُ بأن أعترف، دعني أعترف ولْننْهِ هذا الأمر". قال: "اعترف بذنبك يا بنيّ"، ثمّ قام بحكّ ساقيه. فقلت: "اسمع أيّها الأب، عليك أن تكفّ عن الحكّ لأنّ حكّك يشتّت تركيز أفكاري ويعكّر توبتي". فأمرني الراهب: "يجب أن تندم ندماً نابعاً من كلّ قلبك". تمتمت: "إنّي أندم من كلّ قلبي". قال: "كرّر لأنّي لم أسمعك كما يجب"، فكرّرت بصوت مرتفع: "إنّي أندم من كلّ قلبي". أرخى الراهب رداءه وقال: "اعترف الآن بذنوبك". أسررت له: "حسناً، إنّها قصّة طويلة وسألّخصها لك لأنّه يروق لي أن ألّخص في ليلة ماكاو هذه، ليلة الاعتدال الخريفيّ، وهذه هي الخلاصة: لقد قمت أنا أيضاً بنفخ الأمواج، هذا هو ذنبي". فقال الراهب: "يبدو لي كلامك هذا كلاماً غامضاً نوعاً ما، يجب أن تعبّر بصورة أوضح"، فدمدمت: "كنت أكتب الكتب، هذا هو ذنبي". سأل الراهب: "وهل كانت كتباً غير لائقة؟"، أجبت: "أيّ غير لائقة، لم يكن فيها شيء غير لائق على الإطلاق، كان فيها فقط نوع من الغطرسة والاستعلاء على الواقع". سحب الراهب نفثةً أخرى من سيجاره، فقلت: "العفو أيّها الأب، هل يمكن لك أن تكفّ عن نفث دخانك في وجهي؟ إنّك تجعلني أضيّع تركيز أفكاري". نفث الدخان في الهواء وقال: "الغطرسة حسب تعاليم كنيستنا الأمّ هي الكِبْر، لقد ارتكبت ذنب التكبّر، لكن يجب أن تفسّر بوضوح أشدّ".

قلت: "إعلَم أنني وضعت في رأسي ذات مرّة فكرةً تقول إنّ القصص التي يتمّخض عنها خيالي تتكرّر في الواقع، علماً أنّي كنت

أكتب قصصاً سيّئة، وهذا هو وصفها الصحيح. لكنّي تفاجأت بأنّ ذلك السوء تكرّر فعلاً في الواقع، أي أنّني باختصار كنت أُسيّر الأحداث، وهذا هو الكبْر الذي حدّثتك عنه". سأل الراهب: "وبعدها؟"، فسألته بدوري: "بعدها ماذا؟"، قال: "ماذا عن الذنوب الأخرى التي اقترفتها خلال حياتك، من يدري كم اقترفت من الذنوب الأخرى خلال حياتك". أجبت: "كانت كثيرة، لكن ليس لها أهميّة لأنّها تنتمي إلى البؤس البشريّ ولا يهمنّي منها شيء، فلنتركها جانباً". قال الراهب: "إنّنا لا نوزّع التبرئة هنا كما نوزّع الحساء على الفقراء. عليك أن تعترف أوّلاً ثم نعطيك البراءة، هذه هي القاعدة".

نظرت إليه فشعرت بذلك النوع من الارتباك الذي كنت أشعر به في معدتي منذ أن نزلت. حاولت أن أطمئن نفسي فأرجعت السبب إلى لحم الخروف بالأناناس الذي قدّمته لي العجوز الصينيّة. قلت: "اسمع أيّها الأب، إذا كنت لا تريد أن تعطيني البراءة فصبراً لأنّ براءتك لن تنفعني في كلّ الأحوال في شيء، لكنّي أريد أن أعرف أمراً، هل أنت من كان يعتني في كولوآني بأمور المجذومين قبل فترة طويلة من الوقت؟". نظر إليّ نظرة دهشة وقال: "كولوآني، حتماً، كولوآني، كان ذلك وقتاً جميلاً، كان هناك وقتها مجذومون كثر". تنهّد بحنين وشوق، وواصل: "كان هناك وقتها مجذومون كثر، لم يبقَ منهم أحد، الجميع الآن في صحّة جيّدة في ماكاو، أصبح الجميع رجال أعمال، لكنّهم في ذلك الزمان كانوا يأتون إلى المصحّ بأيدٍ مزرقّة، ينقصهم إصبعان أو ثلاثة أصابع، وكانوا يعهدون إلينا بأنفسهم لنعالجهم،

كانوا يقبلون التعميد بكلّ سرور ويهجرون الوثنيّة من أجل أن يبقوا في المصحّ، كانت تلك أزمان جميلة". تنهّد من جديد وواصل: "لا يوجد الآن في ماكاو حتّى صيّادون، والسمك يشترى من هونغ كونغ".

طلبت منه سيجاراً فقدّمه لي، أشعلته وقلت: "اسمع أيّها الأب، هل تعرف الأب دومينيغ؟"، تنهّد مرّةً أخرى وتمتم: "الأب دومينيغ كان قدّيساً"، فسألته بقلق: "لماذا قلت كان، هل هو غير موجود الآن؟". أجاب الراهب: "لقد مات قبل ستّ سنين، كان قدّيساً بالفعل". قلت: "حدّثني عنه رجاءً". أجاب الراهب وهو يسحق السيجار أخيراً على الأرض: "حسناً، دومينيكو هو الاسم الحقيقيّ للأب دومينيغ، كان من إيطاليا، من صقلّيّة، وكان قد عاش في الصين وتجاوز بصعوبة الثورة الشيوعيّة، ثمّ جاء إلى ماكاو خلال الحرب على ما أعتقد لأنّي كنت وقتها مجرّد فتى صغير، أنشأ حينها في كولوآني ذلك المصحّ للمجذومين، وقد ذهبت عندها في الخمسينيّات لمساعدته، ولم أكن وقتها راهباً لكنّي كنت في طريقي للرهبانيّة". سألته: "وبعدها؟"، أجاب: "قضينا بعدها سنوات عديدة مع بعضنا، كان عندنا مئات المرضى وكان هو يعتني بحالات مختلفة ويساعد الجميع". سألته: "الجميع؟ حتّى إيزابيل؟"، بدا أنّه يفكّر لبرهة ثمّ أجاب: "لم أعرفها قطّ"، فأضفت: "ماغدا، ربّما كان اسمها ماغدا". فسألني وقد نفد صبره: "يعني هل هي يا بنيّ ماغدا أم إيزابيل؟"، سحبت من جيبي الرسم الذي صوّره تياغو والذي بدت فيه صورة إيزابيل، فأشعل الراهب عود ثقاب لكي يرى وانتهز الفرصة ليشعل سيجاراً آخر. نظر إلى الصورة بضع ثوان ثمّ قال لي بكلّ ثقة: "لا أعرفها. لا أعرف هذه

الفتاة". أضفت: "تذكّر جيّداً، كان اسمها إيزابيل، لكن ربّما كانت تدعو نفسها ماغدا، جاءت من البرتغال وكانت مضطهدة سياسيّاً". أشعل الراهب عود ثقاب آخر وعاد لمشاهدة الصورة وقال: "آسف، لا أعرفها، لم أرها البتّة". ثمّ أضاف: "كان الأب دومينغوس فقط هو الذي يهتمّ بهذه الأمور. لم يكن هذا من اختصاصي، لكن لماذا تبحث عنها أنت يا بنيّ، ما هو السبب بعد زمن طويل؟".

سحبت نفثةً كبيرة من السيجار وحاولت ألاّ أوّجه الدخان إلى وجهه كما فعل، وقلت: "أيّها الأب العزيز، قد يطول تفسير كلّ هذه القصّة، وقد أخبرتك أنّي أعتبر نفسي نجماً نابضاً لكنّي أيضاً مُستقبِل، لأنّي قادم من مكان يسود فيه البهاءُ ولا يمكنني أن أترك هذه المنطقة من حياتي في الظلام". "ماذا يعني البهاء؟"، سألني الراهب، فأجبت: "يعني البهاء بكلّ بساطة". قال الراهب: "عندما كنت أدرس في المدرسة الدينيّة حدّثونا عن الزوهار[1]، فهل هذا ما تعنيه؟". أجبته: "فسّرها كما تشاء، لكنّي أريد معرفة أخبار إيزابيل أو ماغدا إذا كانت تدّعي أنّ هذا اسمها". طلب الراهب منّي المعذرة وعاد ليحكّ ساقيه ثمّ قال: "صبراً يا بنيّ، لا أعرف إن كانت هذه الحكّة عادة سيّئة أو أنّها مرض جلديّ مملّ. على كلٍّ اسمعني، فأنا لست وثنيّاً لكنّي عرفت الكثير عن الوثنيّين، وإنّك تجبرني الآن على قول أشياء يجب ألاّ أقولها. لو كنت مكانك لسألت أحد الوثنيّين. لا يعجبني الوثنيّون بكلّ الأرواح التي يعدّونها، لأنّي أعتقد أنّ هناك من الأرواح روحاً واحدة فقط، قد تكون ثلاثيّة كما علّمونا في المدرسة الدينيّة، أمّا هم

١ Zohar من مجموعة كتب الديانة اليهوديّة التي تفسّر الجوانب الدينيّة في التوراة.

فيرون الأرواح في كلّ شيء، لديهم روح للزهرة وروح للشجرة، وللأشخاص، وللصورة، وإذا عرضت عليهم صورتك فسينبرون ليقولوا لك شيئاً عنها". قلت: "بالفعل" ثمّ سألته: "لمن أتوجّه؟". أجاب الراهب: "في قديم الزمان كان يوجد هنا شاعر وكان ربّما وثنيّاً أو أنّه لم يكن، لكنّه كان على صلة بالظلال، من المؤسف أنّك لم تتعرّف إليه، أعتقد أنّه كان مجنوناً، وكان يدخّن الأفيون ويتقن الحديث بعد الأفيون، كان شاعراً كما أخبرتك، ربّما كان بوسعه أن يعطيك دليلاً عن الشخص الذي تبحث عنه، لأنّه جاء على ما أعتقد مثلك من خارج الزمان". فسألته: "ومن هو هذا الشخص؟". أجاب الراهب: "إنّه نوع من الهيكل العظميّ، كانت له ذقن طويلة وكان لا يرتدي إلاّ ملابس بيضاء، وعندما كان رأسه يدور يخرج إلى الشارع وهو يرتدي شرشفاً". سألته: "وما كان اسمه؟"، أجاب الراهب: "لا أعرف اسمه الحقيقيّ، لكنّ الجميع ينادونه هنا الشبح الذي يسير، أظنّ أنّه يسكن في آفينيدا دا بوا فيستا".

نهضت واستأذنت. قلت: "شكراً أيّها الأب، كان الحديث معك مفيداً جدّاً". كان منظر الساحة سيرياليّاً يتجاوز الواقع، تدعم هذا الانطباع أضواء النيون وتلك الواجهة الاصطناعيّة. تذكّرت أيّام كنتُ مغرماً بالروّاد التاريخيّين وكنت أقلّد السيرياليّة. لم أكن أعرف شيئاً وقتها.

كنت قد ابتعدت عندما سمعت صوت الراهب يتردّد وسط الساحة. قال: "أريد أن أقول لك إنّي أبرّئك وأبلّغك الغفران". تمتمت في نفسي: "شكراً أيّها الأب"، ثمّ سرت على طريقي.

٧

الدائرة السابعة

الشبح الذي يسير. ماكاو. زوال

كان صباحاً خانقاً، شمسُه باهتة بسبب الرطوبة، ينذر بزخّات مطريّة مداريّة. كان هناك على طول ميناء فيلهو صفٌّ من العربات. صعدتُ إلى الأولى منها. كان الحوذيّ صينيّاً له شارب متدلٍّ ويعتمر طاقيّةً مائلة. كان يرتدي عباءة مشحّمة ويتعرّق. نظر إليّ نظرة شكّ، ربّما لأنّي كنت أرتدي قميصاً أبيض طويلاً يصل حتّى الورك وصندلاً من الجلد. قال لي شيئاً لم أفهمه، ربّما باللغة الكانتونيّة.

قلت له بالبرتغاليّة: "اسمع يا صديقي، خذني لعند الشاعر الذي يرتدي ملابس بيضاء وهو في بوا فيستا". أجاب ببرتغاليّة مكسّرة: "لا يعرف"[1]. جلست على الكرسيّ وفصّلت له طلبي: "شاعر بلحية طويلة"، فأجاب بحزن: "لا يعرف"، فكرّرت: "موجود على كورنيش البحر في بوا فيستا، إنّه شاعر، رجل يرتدي دائماً ملابس بيضاء"، فقال بحزنٍ أشدّ من ذي قبل: "لا يعرف"، فقلت وأنا أفصّل كلماتي: "اسمع أيّها العجوز الصينيّ، الجميع في ماكاو يعرفون ذلك الشاعر، لستم أكثر من أربع قطط، وهو أوروبيٌّ ملتحٍ يعيش مع امرأة صينيّة ويرتدي دائماً ملابس بيضاء، يسمّيه الصينيّون الشبح الذي يسير"، فأجاب بابتسامة عريضة: "ها، الشبح الذي يسير، حتماً، آفينيدا دا بوا فيستا. نحن نسمّيه بالكانتونيّة بطريقة أخرى، لكنّي متأكّد أنّه هو. أعرف إلى أين آخذك، ثق بي".

---

١ الترجمة تنقل العجمة من الأصل الإيطالي. (م)

كان كوخاً خشبيّاً على الآفينيدا مقابل البحر. توجد على البوّابة حصيرة من قشّ وهناك ثلاث درجات تقود إليها وهي مغلقة بستارة. قرعت. لم يجب أحد فعدت وقرعت. انتظرت بهدوء وأمل. بعد دقائق شُقّ الباب وأطلّت صينيّةٌ في حوالي الثلاثين من العمر. كانت جميلة ورشيقة، ترتدي قميصاً أزرق مطرّزاً يصل حتّى منتصف الركبتين، كان شعرها ملفوفاً على شكل كعكة خلف رأسها وهناك طيّتان في جفني عينيها مبطّنتان. قلت: "مساء الخير، أرغب برؤية السيّد الشاعر، أرسلت له بطاقة أعلمه فيها بزيارتي، أرجو أن يتمكّن من استقبالي". سألتني الصينيّة: "من أنت؟" قلت: "أدعى إيزلوفاكّي ، لكن يمكن القول واكلاو، أنا أيضاً أفهم في الشعر". أزاحت الصينيّة الستارة وسمحت لي بالدخول. وجدت نفسي في صالون مفروش بأثاث من الخيزران، وكانت الأرضية خشبيّة والجدران مبطّنة بالقصب. قالت الصينيّة: "لقد تناول السيّد الشاعر الأفيون، وهو يستريح الآن"، فقلت "حسناً، أودّ أن أتحدّث إلى زوجته". أجلستني على أريكة وقالت: "أنا زوجته، بل لست زوجته، أنا خليلته، اسمي نغان ين وهذا يعني بالنسبة لك الصقر الفضّي، هل أقدّم لك مشروب ليكيور بالمندرين؟". قبلت بمشروب الليكور بالمندرين. كانت 'الصقر الفضّي' سريعة وصامتة. قدّمت لي المشروب الذي لا يمكن تحمّله والذي كنت أعرفه، كان كثيفاً وحلو الطعم، ثمّ صفّقت بيديها فظهر خادم صينيّ يرتدي نوعاً من الثوب وينتعل حذاءً قماشيّاً. أمرته الصقر الفضّي: "عليك بالتهوية حول السيّد، إنّه يشعر بالحرّ". فشغّل الخادم الصينيّ منفاخاً يحرّك مروحة كبيرة من الكتّان معلّقةً في

السقف. وصلني بعض الهواء فشعرت بالتحسّن. قلت: "هل عليّ، يا سيّدة نغان ين، أن أنتظر طويلاً؟". قامت بحركة غير مفهومة وقالت: "سأذهب لأوقظه، لا بدّ أنّ السيّد الشاعر زوجي قد استهلك وقت الأفيون، عندما أفتح الباب يمكنك أن تدخل إلى غرفته".

فتحت الصينيّة الباب، عبارة عن ستارة خيزران، فدخلت على استحياء ورأيت رجلاً ممدّداً على سرير مغطّى بشرشفٍ أبيض. كانت له لحية طويلة غامقة ووجهٌ هزيل وعيناه نصف مفتوحتين.

"ما هو السبب السعيد الذي جعلني أتشرّف بهذه الزيارة؟" غمغم. فأجبت متلعثماً: "لا أدري أنا أيضاً، لكن أخبروني أنّ بوسعك في هذا الحلم الذي يجتازه كلانا أن تعلمني بإشارة منك عن فتاة لا تعرفها للأسف، لأنّها ولدت بعد سنين كثيرة من ولادتك، غير أنّ تخميناتك الفلكيّة قد تساعد على هدايتي في العثور عليها". تنهّد بصوتٍ خافت ثمّ صفّق بيديه فهرع الخادم الصينيّ وعندما أومأ إليه الشاعر قام الخادم بتحريك دوّاسات آلة فيها قماش يستعملونه كمروحة. "لكن من أين أنت؟" سألني الشاعر. نظرت إليه فبدا لي كأنّه المسيح ميّتاً. وجهه كأنّه محفور وهناك أكياس عميقة تحت عينيه. أجبت: "من الأبدية، الأبدية التي تسبقنا وتتعدّانا كلينا، أنت الذي تعيش ساعتك هذه وأنا الذي عشت عندئذ في ساعتي تلك، أنت الذي تكتب أبيات شعر وأنا الذي كتبت أشعاراً لم تكن جميلة كأشعارك بل من الواضح أنّها أضعف وليست فيها تلك المآسي الشخصيّة التي وضعتها أنت في قصائدك". فهمس قائلاً: "لم أضع في أبياتي تلك مأساتي الشخصيّة، بل هي قصّة جيلي، إنّها حقبة تاريخيّة تحوّلت إلى شعر". فقلت:

"حتماً، لكنّك لم تحمّل نفسك المسؤوليّة قط، لأنّك تعيش في نهاية العالم، وترسل من تلك المنطقة البعيدة رسائلك الشعريّة إلى أوروبّا. لِمَ تفعل ذلك؟".

نهض الشاعر. كان عارياً، هيكلاً عظميّاً. تغطّى بشرشف مثل سيناتور رومانيّ وصاح: "مَنْ وسَّخَ، مَنْ مَزَّق شراشف الكتّان التي كنت أريد أن أموت فيها، شراشفي الطاهرة؟".

التفّ بالشرشف حتّى عنقه وتقدّم إلى وسط الغرفة وتابع: "تلك الحديقة التي كانت حديقتي، مَنْ بَتَرَ منها نبتات دوّار الشمس العالية ورماها في الطريق؟". نظرت إليه، بدا كأنّه فزّاعة طيور. خطرت في بالي صورة فوتوغرافيّة مثيرة تعود لزمن الحرب العالميّة الثانية فقلت له: "إنّك تذكّرني، يا معلّم، بأحد السجناء الناجين، قد تكون قصّة لا تعنيك، لكن لا يهمّ"، فأجاب: "لا أعرف عمَّ تتحدّث، إنّي لا أعرف شيئاً من شيء، لا عن الماضي ولا عن المستقبل. قصائدي تتناول الحضور الأبديّ[1]". ثمّ حرّك جرساً فدخلت محظيّته، قال لها: "اعملي على إحضار غليونين، إنّنا نحتاج إليهما"، وقال لي: "اطلب منّي الآن ما تريد، لكن فكّر قبلها كما يجب، وتذوّق قبلها الأفيون".

دخل الخادم مع غليونين. أشعل النار، راقب الماء، وضع الجرعة. بدأت بتذوّق تلك الجرعة وأنا أشعر بالخوف من أن تخونني إحساساتي، وقلت: "إنّني أبحث عن إيزابيل، ربّما تعلم أين يمكن لي أن أجد أخباراً عن إيزابيل، إنّي أجمّع حلقات تتمحور

١ immanence éternelle (م)

حول نفس المركز، مثل هذه الحلقات المتحلّقة التي تعصر في هذه اللحظة ذهني". سحب الشبح الذي يسير نفثةً طويلة من غليونه. قال: "إيزابيل، هناك إيزابيل ربّما في قصائدي، أو في أفكاري، هذا نفس الشيء، لكنّها إن كانت موجودة في أشعاري وفي أفكاري فهذا يعني أنّها ظلٌّ ينتمي إلى الأدب، فلماذا تريد أن تبحث عن ظلٍّ ينتمي إلى الأدب؟"، أجبت: "ربّما لأجعله حقيقة، لأعطي معنىً لحياته ولراحتي".

نهض من مضجعه ووضع من جديد الشرشف على كتفيه، سحب نفثة أفيون أخرى وقال: "اسمع يا صديق الروح، لقد عبرْنا الزمان، هذا ما يفعله الشعر ويفعل غيره، وكذلك الأفيون، أنا لا أستطيع إلاّ أن أبتكر أبيات شعر، أبيات شعر حول الجبال مثلاً، عن جبال لم أعرفها قطّ، وكم يسرّني أن أكون قد عرفتها خلال أزماني في كويمبرا، هذه طريقة معيّنة في تقديم الإشارات، لكن عليك أنت بعدها أن تجد المكان والأشخاص، وإذا كنت تصنع دوائر تتحلّق حول مركز واحد فسيُعهد بهذه الدوائر إلى خيالك وإلى روح الابتكار لديك. إنّ أبيات الشعر التي في قلبي لم أكتبها وعلى الأرجح لن أكتبها، لكن بوسعي أن أبتكرها في هذه اللحظة".

صمت وتنفّس بعمق، ثمّ أغلق عينيه وبدا أنّه ينام. انقضت دقائق فشعرت أنّني في حرجٍ شديد. نهضت، سعلت، ثمّ عدت لأجلس في مكاني. قلت بصوتٍ منخفض: "اسمعني يا معلّم". لكن لم تظهر عليه علامات حياة. بقيت عيناه مغلقتين ولم يعد صدره الهزيل يرتفع، كما لو أنّه لا يتنفّس. فتوسّلتُ: "الأبيات يا معلّم".

نهض بغتةً عندها بعرّي هيكله العظميّ، وضع الشرشف على كتفيه، قفز إلى وسط الغرفة وألقى هذه الكلمات وعيناه كعينيْ شبح في حضرة الموت: "متى ستنهض من جديد الشقوقُ على أسوارِ القلعة الخربة، متى يعلو الصراخ والرايات مع نسيم الصباح البارد؟".

بعد استراحة قصيرة تابع بصوتٍ منخفض: "ما عليك إلاّ أن تجد هذه القلعة". فعلّقتُ قائلاً: "العفوَ يا معلّم، هذا يحدث في حكايا الجنّيات، خاصّةً أنّ الجبال مليئة بالقلاع". فنظر أمامه وهو يحدّق في الفراغ، وتمتم: "عليك أن تبحث في موطن غوليلمو تيل"[1]، ثمّ صمت من جديد.

بدا لي أنّ الوضع وصل إلى نقطة سكون، كانت عيناه قد جحظتا خارج محجريهما، كان يحدّق أمامه بتعبيرٍ مفزع. كان بودّي أن أطلب منه أموراً أخرى لكنّي لم أجرؤ وبقيت صامتاً. عندها تمتم الشبح الذي يسير بصوتٍ عميق بدا كأنّه صادر عن القبر: "ستجد هناك رجلاً لا ينتظر زيارتك، قدّيساً جاء من الهند، لم أتمكّن من قراءة اسمه، لكن بوسعك أن تحزر ذلك إذا نقّبتَ في ذكريات حياتك. القلعة هي مكان للتأمّل، وهي مكرّسة لكاتب ألمانيّ أحبّ كثيراً شرقيَ هذا".

شرّع شرشفه من جديد وعرض أضلاعه ذات الهزال المثير، ثمّ استند إلى خزانة صينيّة وقال: "لقد جئت في الوقت المناسب يا سيّد واكلاو، لأنّي سأموت غداً في الصباح".

---

١ William Tell بطل أسطوري سويسري من أواخر القرن الخامس عشر، تنسب إليه أعمال بطوليّة خارقة أدت إلى تحرير بلاده من الطغيان. قيل إنّه مات وهو يحاول إنقاذ طفل من الغرق. (م)

هزّ الجرس الفضّي فظهرت محظيّته في الحال. تمتم قائلاً لها: "رافقي، يا نغان ين، السيّد حتّى الباب". تمدّد على مضجعه وعاد إلى هذيانه. تبعتُ الصينيّة حتّى الباب، أغلقتْ الحصيرة خلفها بعناية وانحنت لي انحناءة خفيفة ولفظت كلمات مبهمة بالكانتونيّة ثمّ قالت بالبرتغاليّة: "رحلة سعيدة"، فأجبت: "شكراً".

كان الحوذيّ بانتظاري على الباب. صعدت وقلت له أن يأخذني إلى بورتو فيلهو.

٨

الدائرة الثامنة

ليز. شافيير. جبال الألب السويسريّة. توسّع.

"مساء الخير"، قلت، "اسمي إيزلوفاكّي". "مساء الخيرات"، أجابت المرأة، "اسمي ليز، اجلس رجاءً إلى طاولتي، الصالة مقفرة ويسوءني أنا أيضاً تناول العشاء بمفردي".

جلست. كانت الصالة فسيحة وقليلة الإضاءة. في الصدر، خلف مقعد، كان هناك نوع من الموقد يخرج منه لهب هزيل. كانت تعلو الجدار الأوسط صورة مكبّرة لهيرمان هيسه[1] بطاقيّته البانامّية الشهيرة. وكان هناك مكبّر صوت يبثّ موسيقى خافتة غريبة لم أتمكّن من تفسيرها.

"ما هذه الموسيقى؟" سألتها. ابتسمت ليز وأجابت: "تكمن صعوبة الموسيقى الهنديّة في تناغمها، فهي بالنسبة لنا نحن الغربيّين تكمن في عنصرين أساسيّين: تالا و راغا. وهذه موسيقى من الشمال الشرقي تستخدم في الرقصات التقليديّة في منطقة مانيبوري، إنّها موسيقى طقوسيّة". "أرى أنّك تعرفين الهند معرفةً جيّدة"، أردفتُ، "أمّا أنا فلا أعرف شيئاً في هذا المجال، لأنّي لا أعرف الحضرة الهنديّة، وإن كنت أستغرب وجود الهند هنا، فوق جبال الألب السويسريّة". "ستعتاد ذلك"، أضافت ليز، "ثمّ إنّ الأمر ليس غريباً كما يبدو لك، وسترى أنّ مكبّر الصوت سيبثّ بعد قليل موسيقى

١ Hermann Hesse (1877–1962) شاعر وروائي ورسّام سويسري من أصل ألماني.

كيرالا، ثمّ مقطوعة كاثاكالي، وهكذا كلّ مساء، يستخدمون دائماً نفس الشريط الذي بدأت أحفظه عن ظهر قلب". سألتها: "هل أنت هنا منذ زمنٍ طويل؟" فأجابت: "منذ شهر تقريباً". أضفت: "هذا كثير على ما يبدو لي، كثير بالنسبة لي على الأقلّ، لأنّي أشعر أنّي موجود في مكان كالدير، أنا الذي لم أعجب البتّة بالأديرة وبنظمها، ولا أطيق تناول العشاء في ساعة مبكرة". أجابت: "إنّ النظم تنفع حين تضيع الحدود، لكنّ هناك سبباً عمليّاً لأنّ هناك جلسة تأمّل ستُعقد في المساء بوجود اللاما، ويحسن أن ينسحب الجميع إلى غرفهم بعد الجلسة لكي يواصلوا التأمّل بصورة انفراديّة". قلت: "لا أفهم ماذا تعنين بـ'حين تضيع الحدود'". فقالت: "ستفهم إذا واصلنا الحديث، لكن يحسن بنا الآن أن نختار أطباقنا". فتحتُ دفتر الوجبات وبدأت بدراسته. كانت الأطباق مجهولة بالنسبة لي تماماً، فنظرت إلى شريكتي في المائدة وقلت: "عفواً يا ليز، أريد أن أعتبرك هذا المساء مرشدةً لي، لأنّي لا أعرف هذه الأطباق". ابتسمت من جديد. كانت لها ابتسامة غريبة غائبة، كابتسامة شخص موجود في المكان وبعيد عنه في الوقت نفسه. قالت: "إنّها أطباق هنديّة، يمكنك أن تثق بي، فأنا أعرف الهند حقّ المعرفة، وأعرف طقوسها وطعامها أيضاً". قلت: "انصحيني إذن"، فبدأت بقراءة الوجبات. قالت: "لدينا هذا المساء طبخ متنوع، طبخ من جميع أنحاء الهند. ولا حيرة إلاّ في الخيرة". قلت: "اختاري إذن أنتِ". نظرت إليّ وابتسمت من جديد. كانت ابتسامتها تقلقني، ولا أعرف لها تفسيراً. قالت: "حسناً، أنصحك في البداية بطبق ثالي، وهو طبق

نباتيّ خفيف معروف في جنوب الهند، عبارة عن خضار مطبوخة بالكاري والبابادومز، أي فطائر الحبوب الخفيفة المقليّة، مع شيء من الرزّ بالبهارات، يبدو لي طبقاً جيّداً في بداية الوجبة". بدت غير واثقة ثمّ جالت بسبّابتها على الوجبات بحثاً عن طبقٍ آخر. تابعتْ: "أمّا بالنسبة للطبق الثاني فأنصحك بطبق غوشتابا وهو الذي أفضّله عادةً، يطبخونه في كشمير". طلبت منها أن "بيّنيه لي". فقالت: "إنّه طبق بسيط فيه كريّات لحم منكّهة، هي عادةً لحم ضأن، مطبوخة في صلصة من اللبن، وهو طعام تقليديّ يقدّمونه في أنحاء الهند الشماليّة". عندما وافقتُ نادت على النادلة. كانت فتاة ذات بشرة زيتونيّة ترتدي سارياً بنفسجيّاً.

تغيّرت الموسيقى. كانت تعزف الآن آلة وتريّة غريبة مع أصوات طبل وصوت رخيم في العمق بدا لي مثل تهويدة الأمّ. سألتها مجدّداً: "العفو يا ليز، يسرّني أن أعرف ماذا يعني حين تضيع الحدود". ابتسمت ابتسامتها البعيدة. أجابت: "يعني أنْ ليست للكون حدود، هذا ما يعنيه، وهذا هو سبب وجودي هنا، لأنّي أنا أيضاً ضيّعت الحدود". شربتْ من فنجان الشاي الذي جاءتنا به النادلة وشربتُ من فنجاني أنا أيضاً. كان شاياً أخضر قويّ النكهة، يفوح منه عطر الياسمين. سألتها: "حسناً، والآن؟". فنظرت إليّ بابتسامتها الغامضة وسألتني: "هل تعرف كم عدد النجوم الموجودة في مجرّتنا؟" فقلت: "ليست لديّ فكرة، هل تعرفين ذلك أنت؟" فأجابت ليز: "حوالي أربعمائة مليار نجمة، لكنّ هناك في الكون الذي نعرفه مئات المليارات من المجرّات. ليس للكون حدود". قلت: "العفو يا ليز،

كيف تعرفين كلّ هذا؟" حدّقت في الفراغ وأجابت: "أنا فيزيائيّة فلكيّة، أو كنت كذلك على أقلّ تقدير".

بدأ مكبّر الصوت يبثّ بصوت خافت موسيقى ناي. كانت دقّات حادّة قد لا يمكن تحمّلها، رغم أنّها مؤثّرة في بعض الأحيان. نظرت إلى صورة هيرمان هيسه فبدا لي كأنّه يبتسم هو أيضاً تلك الابتسامة البعيدة نفسها.

أشعلت ليز سيجارة هنديّة، من تلك المعطّرة المصنوعة من ورقة تنباك واحدة، وقالت لي كما لو أنّها لا تتكلّم معي بل مع فراغ بدا أنّه أمامنا: "قبل سنين كثيرة كان لي ابن ثمّ أخذته الحياة منّي". سكتُّ وأخذت بدوري سيجارة منها، ولاحظت أنّ اسمها غانيش، كانت على العلبة صورة آلهة على شكل فيل. سكتُّ وانتظرتُ أن تتابع، فتابعت: "كنت قد سمّيته بيير، أصبحت الطبيعة شرّيرة معه كزوجة الأب، لم توفّر له بعض الإمكانيّات، لكنّه كان يملك شكلاً خاصّاً به من الذكاء، كان على الآخرين أن يفهموا فقط ذلك الشكل الخاصّ، وأنا كنت أفهمه". صمتت لبرهة ثمّ قالت: "كنت أحبّه كما يحبّ المرء ابنه، هل تعرف أنت كيف يمكن أن يحبّ المرء ابنه؟" أجبت: "للأسف لم يكن لي أولاد قطّ، يمكنك لك أن تخبريني أنت". فقالت ليز: "إنّنا نحبّهم أكثر من أنفسنا، أكثر من أنفسنا بكثير، هكذا نحبّ أولادنا". وضعت فنجانها وعرضت عليّ: "ما رأيك الآن بكأس شمبانيا؟ فهذا المساء يروق لي أن أحتسي كأساً من الشمبانيا ونحن ننتظر الثالي".

أشرت إلى النادلة فجاءت مسرعة. كانت الصالة تظهر بمظهر

غير واقعيّ. كان بعضهم قد أذكى نار الموقد فبدأ يرسل وهجاً ورديّاً على صورة هيرمان هيسه. كانت تُرى من النافذة القمم الثلجيّة، وأصبحت الموسيقى الهنديّة كأنّها صرخة مكتومة، كأنّها دعاء.

لاحظتُ: "هذه الموسيقى تبدو لي مثل النواح". قالت لي: "إنّ الهنود يعرفون حقّ المعرفة ما هو النواح وينقلونه إلى الفنّ، أمّا عندما أنوح أنا مثلاً أو أدعو فإنّ مقاييسنا الغربيّة تحملني على أن أعبّر عن نفسي بالكلمات البشريّة". رفعنا الكؤوس في نوع من تبادل النخب. قلت: "تابعي يا ليز"، فقالت: "كان عنده نوع من الذكاء تمكّنت أنا من دراسته، وفهمته، وتمكّنت من فكّ رموزه، كان من الرموز التي لا تعلّمها مدارس الأولاد لمثل ابني بيير بل رموز من التي يمكن أن تخترعها أمٌّ لابنها كأن تقرع مثلاً بالملعقة على الكأس، لا أدري إذا كان واضحاً معنى أن تقرع بالملعقة على الكأس"، فقلت: "فسّري رجاءً بصورة أوضح"، فقالت: "حسناً، يجب دراسة تواتر الرسالة وشدّة كثافتها، وكنت أعرف معاني التواتر وشدّة الكثافة، كان هذا جانباً من جوانب مهنتي عندما درست النجوم في مرصد باريس الفلكيّ، لكن لم يكن هذا سبب هدايتي بل لأنّي كنت أمّه، ولأن المرء يحبّ ابنه أكثر من حبّه لنفسه". فقلت: "أفهم، وماذا بعد؟" تابعت: "كانت شيفرتنا تعمل بكلّ نجاح، لقد درسنا لغة لا يعرفها البشر، كان هو يعرف كيف يقول لي 'أحبّك يا أمّي' وأنا كنت أعرف كيف أجيبه 'إنّك يا بيير كلّ حياتي'، هذا فضلاً عن أمور أبسط من الواقع اليوميّ، ماذا يحتاج، فيما إذا كان يشعر بالسعادة أو بالتعاسة... ويجب أن أخبرك بأنّ هؤلاء الأشخاص الذين تعاديهم الطبيعة يعرفون

مثلما نعرف نحن ما هي السعادة وما هي التعاسة، الحزن، الكآبة والفرح، وكلّ شيء آخر نشعر به نحن، نحن الكائنات المتغطرسة البائسة الذين نظنّ أنفسنا طبيعيّين". انتهت من شرب الشمبانيا فبدأنا بالأكل وتابعت: "لا أدري لماذا أروي كلّ هذا لك أنت الذي لا أذكر حتّى اسمه". كرّرتُ: "إيزلوفاكّي، اسمي إيزلوفاكّي"، فقالت ليز: "حسناً يا سيّد إيزلوفاكّي، لقد سرقت منّي الحياة ذات يوم ابني بيير، لأنّ الحياة ليست عدوّة لنا فقط مثل زوجة الأب، بل هي شرّيرة أيضاً". حدّقتْ من جديد في الفراغ أمامها، كما لو أنّه لا يوجد أمامها مخلوق. سألتني: "ماذا كنت ستفعل أنت؟"، فأجبت: "لا أدري، من الصعب جدّاً أن أجيب عن سؤالٍ كهذا، بل ماذا فعلتِ أنتِ؟". أصدرت ليز تنهيدةً صغيرة وأجابت: "كنت أهوم خلال النهار على وجهي عبر باريس، أنظر إلى الواجهات، وإلى الكائنات التي تسير بملابسها، وإلى الناس الجالسين على مقاعد الحدائق، كنت أمرّ أمام مقهى فلور وأنظر إلى الأشخاص يتكلمون فيما بينهم على الطاولات وأتساءل لماذا توجد على كوكب الأرض حياة منظّمة بشكل لا يمكن لي أن أفهمه، ولم أكن أتمكّن من تفسير ذلك، بل بدا لي كلّ شيء كأنّه مسرح دمى. أمّا في الليل فكنت أقضي أمسياتي في المرصد، رغم أنّ تلك المناظير التيلسكوبيّة لم تعد تكفيني، لأنّي كنت بحاجة لمراقبة الفراغات الكبيرة بين النجوم. أجل: إنّني هنا على الأرض نقطةٌ متناهية في الصغر وأريد أن أدرس حدود الكون. هذا ما كنت أريده، وكان هذا هو الأمر الوحيد الذي يستطيع أن يعمر قلبي بالسلام والسكينة". ثمّ سألتني: "ماذا كنت ستفعل أنت؟" فأجبت:

"لا أدري، إنّك توجّهين لي الليلة أسئلة صعبة يا ليز. بل ماذا فعلتِ أنتِ؟". قالت: "حسناً، اكتشفت أنّ هناك على الآنده في شيلي أعلى مرصد في العالم وأكثرها تجهيزاً، والأهمّ أنّه كان الأعلى، فأردت أن أذهب إلى أعلى نقطة ممكنة، كنت أريد أن أنفصل عن هذه القشرة الأرضيّة البائسة حيث الحياة سيّئة، كنت أريد أن أكون أقرب ما يكون إلى قبّة السماء، وهكذا أرسلتُ سيرتي الذاتيّة فقالوا إنّهم بحاجة إلى فيزيائيّة فلكيّة مثلي فسافرت وتركت فرنسا وكلّ شيء ولم آخذ معي سوى حقيبة ظهر صغيرة مليئة بالكتب ومعطفاً مبطّناً بالفرو ووصلت إلى أعلى مرصد في العالم". توقّفتْ عن الحديث. ثمّ قالت: "لم يبقَ الكثير على محاضرة اللاما". لكنّي رجوتها وقلت: "تابعي رجاءً"، فتابعت بهمس: "طلبت أن يتركوني أعمل على منظار التيليسكوب اللاسلكيّ، لأنّي كنت أريد دراسة سديم ما وراء المجرّة. هل تعرف ما هو سديم آندروميدا؟ فأجبت: "أخبريني أنت"، فواصلت ليز: "حسناً، سديم آندروميدا هو نظام حلزونيّ يشبه درب التبّانة، لكنّه يبدو مائلاً بحيث لا تظهر سواعد الحلزون بصورة شديدة الوضوح. حتّى بدايات هذا القرن لم يكن أكيداً أنّه كان خارج درب التبّانة، لكنّ تمّ حلّ المشكلة بواسطة منظار تيليسكوبيّ من قبل ويلسون الذي درس في عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين كوكبة المثلّث، وهي حدود نظامنا وكنت أريد الذهاب نحو حدود الكون".

صمتت. كانت الموسيقى قد توقّفت. وساد الصالة صمت غير طبيعيّ كما لو أنّنا كنّا خارج الزمان. أدركت أنّ ليز كانت تريد المتابعة فشجّعتها بأن أشرت إليها بإشارة الموافقة، ولم أرغب

بالكلام لأنّي لا أريد إيقاف السحر الذي كان يسود، فتابعت: "كنت وراء المنظار أبحث عن انبعاثات لاسلكيّة من المجرّة مع إشارات مشفّرة صادرة عن مخلوقات ذكيّة قد تكون موجودة، وكنت أرسل بدوري رسائل مشفّرة. آه، لا يمكن لك أن تتصوّر ماذا يعني أن يكون المرء على جبل من أعلى جبال العالم، حيث لا يوجد في الخارج سوى الثلج والعواصف، بينما تقوم أنت بتصدير رسائل نحو سديم آندروميدا". أجبت: "ربمّا كان بوسعي أن أتصوّر ذلك، رغم أنّي لا أملك تجربتك". واصلت ليز: "كنّا ثلاثة في ذلك الموقع، أنا وفلكيّ ياباني وفيزيائيّ من شيلي، فضلاً عن خادمين يقضيان حوائجنا. وذات ليلة، ذات ليلة هبّت فيها عاصفة ثلجيّة وكان الثلج يتجمّع خلالها على زجاج قبّة المرصد، خطرت لي فكرة، كانت فكرة خرقاء، لا أدري لماذا أكلّمك عنها". قلت: "أخبريني يا ليز، يسرّني أن ترويها لي". قالت: "كانت فكرة جنونيّة بالفعل، كنت أبعث برسائل مشفّرة عندما بحثت عن ترميز كان في قلبي، واخترت شيفرة كانت عزيزة عليّ وترجمتها إلى ترميز رياضيّ ثمّ أرسلتها". وهنا ابتسمت ابتسامتها الغامضة المعهودة وكرّرت: "كان جنوناً". قلت: "أرجوك يا ليز تابعي". قالت: "حسناً، هذا هو الأمر، لا أدري إن كنت تدرك أنّ إرسال رسالة نحو سديم آندروميدا يحتاج في حسابات السنين الضوئيّة إلى مائة عام من تقويمنا، أي قرن من الزمان، وهناك حاجة أيضاً إلى مائة سنة أخرى، أي إلى قرن آخر، لتلقّي الجواب المحتمل. أي أنّ الجواب المحتمل على تلك الرسالة الخرقاء التي أرسلتها قد يستلمه في المستقبل فلكيٌّ لا يعرفني ولا

يعرف شيئاً عنّي". توقّفت لبرهة ونظرت هذه المرّة نظرةً ثابتة في عينيّ ثمّ قالت: "هذا سخيف، ولربّما ظننتَ أنّني مجنونة". فطمأنتها قائلاً: "لا أفكّر في هذا على الإطلاق، أعتقد أنّ كلّ شيء يمكن أن يحدث في هذا الكون، فتابعي". تابعت: "كانت ليلة عاصفة ثلجيّة، تكثّفت بلّورات الجليد على الزجاج، بينما كنت أنا هناك جامدة أمام التلسكوب اللاسلكي، جامدة كمن ارتكب حماقةً كبيرة، في تلك اللحظة وصلت الرسالة من آندروميدا، كانت رسالة مشفّرة فأعطيتها إلى مفكّك الرموز وعرفتها في الحال لأنّها بنفس التواتر، بنفس الشدّة وأستطيع القول بتعبير رياضيّ إنّها رسالة سمعتها خلال خمسة عشرة سنة من حياتي". توقّفتْ وسألتني: "هل أبدو لك مجنونة؟" فأجبت: "لا تبدين مجنونة على الإطلاق، الكون هو المجنون"، فواصلتْ: "حسناً، خشيت أن يحسبني زملائي مجنونة، خاصّةً أنّه لا يمكنني أن أكشف لهم الأمر بتعبير منطقيّ، لذلك لم أطلعهم حتّى على الرسالة. وكيف كان لي أن أبرّر ذلك. بعد أيّام قليلة تركتُ المرصد، همت في العالم ووصلت إلى الهند حيث توقّفت طويلاً وهناك اكتشفت في أحد الكتب المقدّسة أنّه يمكن أن تكون الجهاتُ الأصليّة[1] لا متناهيةً أو غير موجودة مثلما هو الأمر في الدائرة مثلاً. لقد أثّرت فيّ هذه العبارة كلّ التأثير: لأنّه ماذا يبقى للفلكيّ عمليّاً إذا أُخذت منه الجهات الأصليّة؟ وهكذا بدأت بدراسة الفلسفة الهنديّة ونظريّة تؤكّد أنّ الإنسان الذي ضاع يحتاج إلى ترميز الكون في شكل من أشكال الفنّ التكامليّ، أي أنّه يحتاج إلى جهاته الأساسيّة، ولهذا أنا الآن هنا،

١ وهي الجهات الأربع المعروفة ويقال عنها أيضاً الجهات السماويّة.

إذ لا يمكن الاعتقاد ببلوغ حدود الكون لأنّه ليس للكون حدود".

توقّفت ثانيةً وابتسمت ابتسامتها المرهقة، ثمّ سألتني: "وأنت، لماذا أنت هنا؟" أجبت: "إنّي أحاول أن أصل إلى مركز، ولقد عبرت دوائر متحلّقة حول نفس المركز وأنا الآن بحاجة إلى إشارة، ولهذا جئت حتّى وصلت إلى هذا المكان". فسألتني ليز: "وهل تعتقد بالدوائر المتحلّقة حول نفس المركز؟". "لا أدري"، قلت، "إنّها طريقة مثل غيرها، ربّما كانت هذه أيضاً طريقة أخرى من طرق الفنّ التكامليّ، لكنّي لست من التابعين". فسألتني: "فما أنت إذن؟"، أجبت: "اعتبريني فقط شخصاً يبحث، ألا تعلمين أنّ المهمّ هو أن نبحث". فأكّدت: "إنّي موافقة، المهمّ هو أن نبحث، وليس المهمّ أن نجد أو لا نجد؟".

كانت قاعة المحاضرات، كما كُتب في اللوحة بالإنكليزيّة، موجودة في الطابق الثاني. استقبلتني على قمّة الدرج فتاة شرقيّة صغيرة ملتفّة بثوب ساري وتحمل قائمة في يدها. ضمّت يديها في علامة تحيّة وأحنت رأسها وسألت: "ما اسمك أيّها السيّد؟" أجبت: "إيزلوفاكّي". فتفحّصت القائمة ووضعت إشارة بقلمها. قالت: "تفضّل". كانت الصالة فسيحة باهتة الإضاءة أرضيّتها من الخشب الفاتح اللون وجدرانها عارية مبيّضة بالكلس. رأيت ليز جالسة على الأرض وهي ترتدي شرشفاً برتقاليّ اللون. في صدر الصالة هناك مقعد خشبيّ يعتقد أنّ اللاما سيجلس عليه. قمت بجولة حول الصالة وتركت بطاقة على المقعد. وقّعت باسم تاديوس وأضفت: "الغرفة رقم ثلاثة وعشرون"، ثمّ عدت إلى غرفتي.

قال لي: "غريبٌ أن أراك تخرج من العدم". أجلسني على أريكة أمام النافذة وجلس إلى كرسيّ مرصّع جانب طاولة المكتب. كنت قد عدت وارتديت ثيابي الغربيّة، لكنّي بقيت حافياً. فقلت: "أرى أنّك أنت أيضاً تخرج من العدم يا عزيزي السيّد شافيير". أجاب: "لم يعد اسمي الآن شافيير، فلقد تركت هذا الاسم في العالم". واصلتُ: "حسناً، لكنّك تخْرجُ حقيقةً من العدم، فلقد سمعتُ أنّك ضعت في الهند، هذا ما قاله لي أحد الأشخاص قبل سنين، بينما ها أنت الآن على جبال الألب السويسريّة تقوم بدور القدّيس". قال: "أطلب منك احترام عقائدي". قلت: "حتماً، لكنّي أعتقد أنّ دينك يعلّمك أيضاً احترام عقائد الآخرين، إذ أنّ لي قناعاتي على طريقتي، وإذا كنت لا أستطيع أن أسمّيها معتقدات، فلنقل إنّ لي التزاماً مع نفسي". فسألني وهو يحدّق فيّ: "لكن أنت من أنت؟" أجبت: "ذلك الذي تراه على البطاقة، أنا تاديوس". فأضاف: "أنا لا أعرفك". قلت: "لكنّك كنت تعرف إيزابيل، ولهذا أنت تستقبلني في شقّتك، بعد أن أثار اسم إيزابيل فضولك"، فأجاب: "إيزابيل تنتمي إلى الماضي". قلت: "ربّما، لكني هنا الآن لإعادة بناء ذلك الماضي، إنّي أصنعُ ماندالا". قال: "عفواً؟" فأكّدت: "هذا بالفعل، وأنت تعرف الماندالا حقّ المعرفة، لكن لنقل إنّ ما أصنعه هو نوع من الماندالا، بطريقة خاصّة، لكنّ الحلقات بدأت تتقارب، لقد رسمتها، أو لنقل إنيّ قد عبرتها الواحدة تلو الأخرى، ولقد تبيّنت معي صورة غريبة، لكنّي بدأت أُحْكم طريقي نحو المركز". سألني: "من الذي أخبرك بوجودي هنا؟"، أجبت: "أخبرني بهذا شاعر، لا بل شبح شاعر". أجاب

شافيير: "إنّك تتحدث بأسلوب الرموز". قلت: "يبدو لي أنّك أنت أيضاً تتهرّب، وكأنّك تخاف من الاعتراف"، فأكّد: "ليس لدي ما أعترف به"، وواصل: "ثمّ إنّي لا أدري لماذا يجب عليّ أن أخبرك أنت الذي لا أعرفه عن حياة شخص عرفته عندما كنت حاضراً في العالم". فقلت: "الأمر بسيط، لأنّ إيزابيل حدّثتك عنّي". فصمت ونظر نحو الجبال. لكنيّ تعقّبته بكلامي: "هل أنت مستعد أن تقسم بأنّ إيزابيل لم تحدّثك عنّي؟" فأجاب: "أنا لا أقسم أمام مجهولين، كما أنّ ديني يمنعني من القَسَم". كان هناك ضوء غريب يلمع في عينيه ويظهر أنّه يراوغ ليبقى على صمته، أو ليتهرّب من بعض الالتزامات أو الذكريات. كان بودّي أن أدعوه السيّد لاما، لكنّي لم أجرؤ على استعمال غطرستي المعهودة، فقلت: "اسمع يا شافيير، إنّك قادر على أن تعلمني بأخبارها، فأنت تعرف بشكل ما، أو عرفت، شيئاً عنها. فساعدني في الوصول إلى ذلك المركز". تناول ورقةً من على مكتبه وأخذ يرسم عليها بأقلامه الملوّنة. راقبته بصمت. تركته يعمل. استغرق على الأقلّ ربع ساعة. ثمّ مدّ الورقة نحوي. كانت عليها دائرة مزدوجة كتب فيها: "بارتينوب، إنّي أطوف ذاهلاً مهجوراً". رسم حولها قمراً في مختلف أطواره وفي المركز قمر بوجه كبير مدوّر كما في الرسوم الساذجة، وكان بلون أحمر قرمزي. سألته: "وما معنى بارتينوب؟" نظر إليّ نظرة حسبتُها ساخرة ثمّ قال: "ها هي بارتينوب تحتجزني، ذلك كما نُقش على الشاهدة[1]". فقلت:

١ كتبت العبارة على شاهدة الشاعر الكبير فرجيل الذي رافق دانتي أليغييري في رحلة **الكوميديا الإلهية**. وجاء ذكر هذه العبارة في النشيد الثالث من كتاب البرزخ. (م)

"بارتينوب هي إذن نابولي، في إيطاليا. وماذا كانت تفعل إيزابيل في إيطاليا؟ العفو أيّها السّيد لاما لكن يبدو أنّ في هذا شيئاً من التناقض". عدّل من الشرشف الملوّن الذي يغطّي كتفيه. ابتسم ابتسامةً مبهمة وتمتم: "كانت لنا اتّصالات مع نابولي". فأجبت: "حسناً، لكن إلى من أتوجّه؟ مع من يجب أن أتحدّث؟"، نظر إلى خارج النافذة. كان الليل في طريقه لأن ينسدل. بدا لي أنّي أسمع خوار بقرة وبدا لي أنّ كلّ شيء عبث في عبث. قال بلهجة العارفين: "إنّ الماندالا يجب أن تُفسّر، وإلاّ سيكون من السهل جدّاً البحث عن المركز. دقّق النظر في المركز وسترى قمراً رسمتُه لك، ففسّره على طريقتك وهواك، وأرجو أن تهتدي بحساسيّتك، لكن تذكّر أمراً هامّاً هو أنّ ما كتبته لك يعتبر كلمة سرّ، أو أنّه كان في ذلك الوقت كلمة سرّ، إنّك أنت أيضاً تطوف مهجوراً، والآن أستميحك العذر لأنّ تأمّلاتي تنتظرني".

فتح الباب فخرجت إلى الممرّ ولم أملك حتّى وقتاً لأحيّيه.

٩

الدائرة التاسعة

محطة الريفييرا. تنفيذ. عودة.

في تلك الساعة كانت المحطة مقفرة. خرجتُ إلى فسحة صغيرة تجاهها، فيها حديقة ونخلتان ومقعدان، يحدّها سياج من شجيرات البيتوسفور[1] ذات عطرٍ فوّاح. ويُفترض أن يكون البحر وراءها. كانت الرمال وحصى البحر تغطّي الأرض. هناك محطة قطار صغيرة من محطّات الريفييرا، تماماً مثلما كنت أتخيّلها. رأيت قطاراً يعبر بأقصى سرعة، كان متّجهاً دون أدنى شكّ نحو فرنسا. كانت فرنسا وراء أضواء الخليج. جلست على المقعد لأفكّر في ما أنا فاعله. فهل كان عليّ أن أعبر المنحدر الصغير لأبحث عن شارع اوبردان؟ كانت مصابيح الحديقة مضاءة. جلست على مقعد خشبي تحت إحدى النخلتين ونظرت إلى الأعلى. كان القمر في ربعه الأخير، كان أبيض كالحليب. بحثت في زاوية أخرى من السماء فرأيت نجمةً عزيزةً على قلبي. مددت ساقَيّ، أسندت رأسي على ظهر المقعد وجلست أحدّق في السماء.

تناهت إليّ موسيقى من آخر المنحدر الذي يحدّه السياج النباتي المعطّر. عرفت أنّها ميلوديا من موسيقى بيتهوفن اسمها "الوداع، الغياب، العودة"[2].

رأيت شخصاً غريب الشكل يتقدّم. كانت ملابسه مثنّاة متجعّدة،

---

١ Pittosporum شجيرة زينة دائمة الخضرة لها زهر عطريّ أبيض. (م)

٢ "Les adieux, l'absence, le retour" (م)

قبّعته أسطوانيّة بيضاء ويحمل كماناً. عندما وصل عندي خلع قبّعته بأدب واحترام، وقال: "مساء الخير، وأهلاً بك في محطّة الريفييرا التي كنت تحلم بالوصول إليها ذات يوم".

طلب الإذن ثمّ جلس إلى جانبي. "العفو"، قال لي، "إنّك تبحث عن أوبردان، لكن عبثاً تفعل، لأنّ الاسم تغيّر، أصبح اسمه الآن شارع عمّال البحر".

نظرت إليه نظرة استفهام، فتنهّد وأردف: "كما أنّ المطبعة التي تبحث عنها أغلقت، توقّفت عن العمل قبل سنوات، يوجد في مكانها الآن محل حلويّات أنيق، اسمه بِينْ يِهْ[1]".

"إنّني أبحث عن المطبعة الاجتماعيّة"، قلت له، "هذا ما أبحث عنه".

ابتسم وتنهّد ثانيةً، وأجاب: "تماماً. المطبعة الاجتماعيّة، المطبعة الإجتماعيّة العريقة الشهيرة، لقد هدمتها قنبلة قبل سنين كثيرة، لم يُعثر البتّة على المسؤولين، وجدوا قرائن وأدلّة وأجريت بعض التحقيقات ولاحت حتّى ظلال دعوى ومحاكمة، لكن بعد أن طارت الآلات في الهواء ومرّ وقت طويل على تلك الغرف المفرّغة الخاوية جاء أحدهم واشترى المكان وأقام فيه محلّ حلويّات، يمكن تناول حلوى لذيذة فيه".

سألته: "العفو! وماذا كانت تطبع تلك المطبعة الاجتماعيّة؟".

تنهّد من جديد وأجاب: "كانت مطبعة تنتمي للحركة الفوضويّة، كانت تطبع آخر منشورات الفوضويّين، أي القليل مما تبقّى منها،

---

١ Bignè (م)

كتيّبات رخيصة، وخطابات بيترو غوري[1]، تاريخ الفوضويّين الإيطاليّين، لكن..."، وتنهّد مرّةً أخرى، "كانت تطبع أحياناً بطاقات أفراح. معلوم، الإنسان يجب أن يعيش ويتدبّر أموره، السيّد تو مي ستوفي[2] يجب أن يعيش ويتدبّر أموره".

سألته: "ومن هو هذا السيّد تو مي ستوفي؟".

"كان آخر من بقي من المطبعة الاجتماعيّة المجيدة"، أجاب السيّد حامل الكمان، "لكنّه طار في الهواء مع آلاته". ثمّ تنهّد صاحب الكمان من جديد وقال: "العفو، لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي في هذا الصعود الحادّ، ناهيك عن عزف الكمان".

نظرت إليه بفضول. كان يجرجر قدميه بنوع من المتعة فوق رمال الشاطئ، وكان قد ركن آلته بيني وبينه على المقعد. قلت له: "إنّي مندهش لكونك تعرف كلّ هذه الأمور، أؤكّد لك إنّ دهشتي كبيرة بالفعل". "إيه"، أجاب، "رجاءً، إنّي أعرف كلّ شيء عن مسارك، لقد تابعتك منذ وصولك، لا بل إنّي قدت كلّ النوطة في معزوفتك، ويمكنك أن تعتبرني قائد جوقتك".

سحب لفافة وأشعلها، وسألني: "هل ترغب بلفافة أنت أيضاً؟" أجبته بالنفي، وأضفت: "أتوق لمعرفة هذا المسار، مساري الذي تقول إنّك على معرفة كاملة به"، فابتسم ونظر نحو السماء ثمّ أجاب: "سأستعرض مسار آخر محطّاتك، ولندع المحطّات الأخرى جانباً،

---

١ Pietro Gori (1865–1911) كان رجل قانون إيطالياً وصحافيّاً ومفكراً وشاعراً ينتمي إلى الحركة الفوضويّة. عُرف بأنشطته السياسيّة وبتأليفه لأغانٍ فوضويّة شهيرة. (م)

٢ Tu-mi-stufi (م)

لا بل قبل الأخيرة، لأنّ هذه هي الأخيرة". سحب نفثة من لفافته وقال: "لقد جئتَ إلى نابوّلي إذن وانغمست حالاً في أسوأ أنواع الفولكلور، والحقّ أنّنا لم نكن نتوقّع أن يصدر مثل هذا عن حدسك، خاصّةً وأنّك برهنت على أنّك شخص تجيد البحث، أمّا أن تذهب إلى مطعم لونا روسّا مسترشداً بالثنائيّ كونشيتّينا ومازينيللو عازف الأكورديون في مطعم ميرجيلّينا. دعك من هذا، كان بوسعك بلوغ هدفك بطريقة غير تلك الطريقة المبتذلة. على أنّي يجب أن أعترف بأنّك نجحت، فمازينيلّو كان يملك بعض الإشارات والدلالات، وأنت تعرف أنّ كلمة السرّ في نابولي هي 'صوت الشعب'، وأنت كنت تجول وتطوف ذاهلاً مهجوراً، ولقد تمكّنت بمساعدة إشارات مازينيلّو من الوصول إلى منطقة فيزوفيو وإلى مجموعة 'ريد مون'، القمر الأحمر: أجل، مع أنّك كنت لا تملك يا مسكين سوى إشارات غامضة إلا أنّك تمكّنت من بلوغ قمرك الأحمر".

سحق عقب السيجارة على الرمل وسألني: "هل تريد أن أواصل حديثي؟"، أجبت: "واصل، فهذا يهمّني"، فقال: "حسناً، بعد أن وجد سكرتيرتين أو ثلاث سكرتيرات حمقاوات عثر أخيراً على خادم عجوز عمل كسكرتير قبل سنوات عديدة، كان رجلاً صغيراً نحيفاً يضع نظّارات، من يدري لماذا تركوه في ذلك العمل رغم أنّ المجموعة أصبحت قويّة بشكل تمكّنت فيه من الحصول حتّى على دعم ماليّ من الدولة، لا بدّ أنّهم احتفظوا به كذكرى من ذكريات أيّام الحرب، لكنّ هذا كان يتذكّر ايزابيل، وقد تعرّف عليها بالفعل من صورتها التي عرضتْها عليه، حدّثك عنها وعن زمن مجيئها إلى

الريد مون، بيد أنّه لم يقل لك شيئاً عن حياتها، ربّما لأنّه لا يعرف عن هذا شيئاً، لكنّه قدّم لك هذا العنوان، عنوان المحطّة الصغيرة على الريفييرا، وقال لك أن تبحث في شارع أوبردان، المطبعة الاجتماعيّة، لأنّ هذا كان آخر مكان دلّوا إيزابيل عليه". صمت لبرهة ونظر إليّ. سألته: "لماذا تحكي قصّتي بصيغة الماضي البعيد؟". ابتسم ونظر إلى السماء، وقال: "الماضي البعيد، الماضي القريب، الحاضر، المستقبل، أستميحك العذر لكنّي لا أعرف الأزمان، لا أعرف الزمن، كلّ الأشياء متساوية بالنسبة لي". نظرت إليه أنا أيضاً. كان يجرجر قدميه على الرمل. سألته: "ولكن من أنت؟". أجابني: "أنا عازف الكمان ماتّيو، أنا الذي أدير دوائرك المتحلّقة حول نفس المركز، أو محطّاتك إن كنت تفضّل هذا التعبير. أنا كنت مُرسلاً أيضاً". ثمّ أخذ قوسه ورسم على الرمل دائرةً صغيرة، وهمس: "لقد وصلنا إلى المركز، أعطني صورة إيزابيل". عرضتها عليه فوضعها في مركز الدائرة، ثمّ نهض وتقلّد كمانه وبدأ بالعزف عزفاً خافتاً معزوفة سوناتا الوداع لبيتهوفن.

في تلك اللحظة رأيتُ إيزابيل. كانت تجري على مرتفع صغير إلى جانب شجيرات البيتوسفور، وكانت ترتدي ملابس من حريرٍ أزرق كما رأيتها ذات مرّة أمام مبنى البلديّة وكانت تعتمر طاقيّة عليها خمارٌ أبيض. مدّت يدها فشددت عليها وعندما كشفت الخمار قبّلتُها على خدّها. قالت إيزابيل: "تشاو، ألا ترى أنّي مازلت موجودة". طلبت منها أن تجلس إلى جانبي على المقعد، فمدّت يديها وقالت: "تعال، أريد أن أقودك أنا في هذا المساء". تأبّطتني كما كانت تفعل ذات

مرّة. نزلنا سويّةً على الطريق الصغيرة وكان اسمها عمّال البحر. كان عطر شجيرات البيتوسفور مسكراً. في الأسفل كانت تلمع أضواء الخليج. سألتها: "إلى أين تقودينني يا إيزابيل؟". قرّبت فمها من أذني وهمست: "انتظر، لا تكن عجولاً". تابعنا النزول.

لم يكن هناك أحد في المرفأ الصغير، كانت القوارب تتأرجح بهدوء فوق الماء. في صدر المرفأ كان هناك رصيف رُبط فيه زورقٌ بخاريّ أضواؤه مشتعلة. قادتني إيزابيل نحو الرصيف.

صعدت أنا أوّلاً ثمّ قدّمت لها ذراعي لأساعدها. لم يكن في الزورق البخاريّ أيّ مخلوق على الإطلاق. دعتني إيزابيل للجلوس على الجسر، على كراسٍ مُعَدّة للاستلقاء مصنوعة من قماش أزرق وأبيض. قالت: "هذا مكانٌ جيّد، لنتأمّل فيه السماء الليليّة". وضعتْ منديلاً أبيض حول عنقها وأشارت إشارةً خفيفة باتّجاه نجمة في السماء، فانفلت الزورق البخاريّ دون أن يحدث أيّ صوت، واندفع بمثل السحر متوجّهاً بسرعة نحو أضواء الخليج البعيدة. بدا لي في تلك اللحظة بالذات أنّي أتذكّر ذلك الخليج وأضواءه، فسألتها بنوع من الأسى والحزن: "أين نحن الآن يا إيزابيل؟"، أجابت: "إنّنا في ساعتنا تلك". أخذتُ يدها وقلت لها: "أرجوكِ أن تفسّري، وضّحي قولك". أجابت إيزابيل: "لقد تجاوز الزورق البخاريّ الجدار الخامس، أصبحنا الآن في ساعتنا تلك. انظر، تلك هي أضواء بورتينهو دا آرّابيدا. لقد سافرنا من سيتوبال، الزورق البخاريّ هو الذي يحملنا من سيتوبال نحو بورتينهو دا آرّابيدا. إنّنا في تلك الليلة التي قلنا فيها وداعاً، على زورق تلك الليلة البخاريّ، هل تذكر؟ إنّنا

في ساعتنا تلك". أجبت: "لكن لا يمكن أن يكون المرء في هذه الساعة كما في تلك الساعة وفي الوقت نفسه، هذا غير ممكن يا إيزابيل. الآن نحن في ساعتنا الآن". أجابت ايزابيل: "هذه الساعة وتلك الساعة أُلْغيتا، إنّك تقول لي الآن وداعاً كما قلت آنئذ، لكنّنا في حاضرنا، حاضر كلٍّ منّا، وأنت تقول لي الآن وداعاً". قلت: "حسناً، إن كان عليّ آنئذٍ أن أقول لك وداعاً فإنّي أريد أن أعرف شيئاً عن حياتك".

اقتربت أضواء آرّابيدا. صفّر الزورق البخاريّ بصوت 'طوط طوط'، وكان هذا هو الصوت الوحيد الذي يُسمع في تلك الليلة الحارّة. ابتسمت إيزابيل لي وشدّت على يدي. كان منديلها الأبيض يرفرف مع نسيم الليل. قالت لي: "وما هو الهدف من إخبارك عن حياتي؟ إنّك تعرف كلّ شيء عنّي، لقد بنيت دوائرك بحكمة وتعرف كلّ شيء عنّي، هكذا كانت حياتي، لقد هربت نحو العدم، لكنّي أفلحت، وقد وجدتني الآن في آخر دائرة من دوائرك، لكن اعلم أنّ دائرتك تلك هي العدم بالذات، عدمي الذي أوجد فيه الآن، لقد أردتُ أن أغيب في العدم، وقد نجحتُ، وفي هذا العدم تجدني الآن في رسمتك الفلكيّة، لكن اعلم أيضاً أنْ لست أنت من وجدني بل كنت أنا التي وجدتك. إنّك تظنّ أنّك قمت ببحث عنّي، لكنّ بحثك لم يكن إلاّ لنفسك ويخصّك أنت وحدك". فسألتها: "ما معنى هذا يا إيزابيل؟"، شدّت على يدي بقوّة. "أعني أنّك كنت تريد أن تتحرّر من عضّات ندمك، وليس أن تبحث عنّي، بل عن نفسك، لتبرّئ نفسك عن طريق جواب منّي أقدّمه هذا المساء. لقد تحرّرت

من ذنوبك في تلك الليلة التي قلنا فيها وداعاً ونحن داخل زورق بخاريّ متّجه إلى ستوبال أرابيدا، لم يبقَ لك أيّ ذنب يا تاديوس، لا يوجد الآن أيُّ هجين لك في العالم، يمكنك أن تذهب بسلام، ولقد أتممت الماندالا". قلت: "أجل، لكن أين أنتِ الآن في هذه الساعة؟". قالت: "انظر، إذا اجتزت الطريق القصيرة الصاعدة التي تلي محطّة الريفييرا التي وصلت منها فستجد في منتصف التلّة مقبرةً صغيرة وستجد بين أفقر القبور على درب في وسطها أنّ هناك قبراً بائساً لا يعتني به أحد، عليه ورد من حديد مشغول وشاهدة، كُتبت على الشاهدة كتابة لا تحمل تاريخاً ولا صورة: هنا ترقد إيزابيل المدعوّة ماغدا، جاءت من بعيد راغبةً في السلام". سألتها: "وهل ترقدين هناك؟". قالت: "لا، هو قبر أجوف، ذكرى فقط عمّا كان، اسمان بسيطان، جوهر حياة، أمّا أنا فموجودة في العدم، وليس عليك أنت أن يعضّك الندم. أكرّر، عليك أن تستريح بأمان في كواكبك وأبراجك، بينما أنا أتابع سيري في عدمي".

وصل الزورق البخاريّ إلى رصيف آرّابيدا. كان الميناء مشحوناً بالغيوم، بل بدأت قطرات من المطر تتساقط. سحبت إيزابيل من حقيبتها واقياً مطريّاً خفيفاً وارتدته، تماماً كما حدث ليلة قلنا وداعاً، وقالت: "هل تذكر؟"، بدأ المطر يهطل. قلت: "انتظري يا إيزابيل، لا يمكن أن تقولي وداعاً مرّةً أخرى". لكنّها نهضت وقبّلتني. قالت: "وداعاً يا تاديوس، هذه هي المرّة الأخيرة، لن نجتمع ثانيةً بكلّ تأكيد، وداعاً". ابتعدت مثلما رأيتها تبتعد في تلك الليلة، عبرت الرصيف القصير، نزلت أمام مطعم عليه ضوء نيون باهت ثمّ خلعت

منديلها وهي تبتعد وتلوّح لي بتحيّتها الأخيرة. حيّيتها أنا أيضاً على استحياء، وأنا أشير 'تشاو' بيدي التي كنت أخفيها بين قدميّ.

عندما فتحت عينَيّ كان عازف الكمان أمامي، وكان القمر قد غاب فوق حديقة المحطّة. كان يعانق كمانه وهو يحدّق في الدائرة على الرمال تحت قدميه الحافيتين. قال: "إنّها ساعة العودة، لقد انتهى البحث". جلس القرفصاء على ركبتيه ونفخ على الرمل، فتلاشت الدائرة. سألته: "لماذا فعلت ذلك؟" فقال: "لأنّ البحث انتهى ولا بدّ من نفخة ريح تعيد كلّ شيء إلى العدم الحكيم". تناولت صورة إيزابيل ووضعتها في جيبي. قلت: "سآخذ هذه معي"، فقال: "افعل ما تشاء، هذا من حقّك، إذ لا يبقى إلاّ القليل من كلّ شيء، إلاّ صورة في بعض الأحيان". ركَنَ كمانه على كتفه وبدأ يعزف عزفاً خافتاً ملحّناً ألحان الوداع، الغياب، العودة. رفعت بصري نحو القبّة الزرقاء فرأيت نجمةً أعرفها. سرت. وفي تلك اللحظة رأيت إيزابيل. كانت تلوّح بمنديلها الأبيض وتقول لي وداعاً.

ملاحظة حول "إيزابيل"

لم يقدّر لأنطونيو تابوكّي أن يرخّص هذا الكتاب، لأنّ هذا هو أوّل عمل من أعماله لم ينشر إلاّ بعد موته، كتبه خلال سنين عديدة (على سبعة دفاتر مدرسيّة مجلّدة بغلاف مزيّت أسود). كما تحدّث عنه بثقة خلال العديد من المقابلات، وأملاه على فيكيانو عام ١٩٩٦، وسمّاه نصّاً خياليّاً "رواية غريبة، ومخلوقاً غريباً كمستحاثّة غريبة الشكل بقيت متعثّرة داخل صخرة". في تلك الأثناء بدأ يكتب أشياء أخرى بتوجّهات مختلفة، كما سافر وارتحل وغيّر البلدان، بينما أودع الكتاب لدى صديقة عزيزة عليه قبل أن يطلب منها استعادته لأنّه يريد مراجعته، ولربّما كان يريد نشره. حدث ذلك في عام ٢٠١١ حين مرض في ذلك الخريف. إنّ رواية **إيزابيل** رواية قويّة تعتبر حجر أساس في بناء تابوكّي الروائي لأنّها توجّه حزَماً من الأضواء الملوّنة لتنير تلك الشخصيّة الغامضة التي تدعى إيزابيل. وإنّنا ننشر اليوم هذا الكتاب بفخر ومحبّة، ونحن ندرك كلّ الإدراك أنّنا نحرس ونذير تراثاً متروكاً للجميع، ونحن على ثقة كذلك بأنّنا نقدّم

هديّةً ثمينة إلى قرّاء تابوكّي في كلّ أنحاء العالم.

ماريّا خوسيه دي لانكستر كارلو فلترينيلّي

تموز/يوليو ٢٠١٣

'فكاهة لذيذة وعذبة'
Le Temps

اختفت إيزابيل، المناضلة ضد ديكتاتورية سالازار في البرتغال، في ظروف غامضة. ورغم أن صديقها تاديوس قرأ خبر موتها في الصحيفة، لم يصدّق وراح يسافر من مكان إلى آخر، مقتفياً رموزاً وإشارات ترشده في بحثه، ملتقياً آخر الأشخاص الذين التقتهم إيزابيل قبل اختفائها المفاجئ.

في رحلة البحث، يدخل تاديوس متاهة 'الماندالا'، متنقّلاً من دائرة إلى أخرى، في أجواء بوليسية وروحانية. من لشبونة إلى جبال الألب السويسرية، يجد تاديوس نفسه مرةً أخرى في ذاك القارب نفسه، تحت ضوء القمر الأحمر نفسه، حيث قال لإيزابيل ذات يوم: وداعاً.

أنطونيو تابوكي (1943–2012) كاتب وروائي إيطالي، أحد أبرز أصوات الأدب المعاصر في إيطاليا وأوروبا. ترجمت مؤلفاته إلى أكثر من عشرين لغة. نال جوائز عديدة أبرزها 'جائزة جان مونّيه' الأوروبية عام 1995.

ISBN 978-6-14425-915-3
DAR AL SAQI
الساقي
www.daralsaqi.com
9 786144 259153 >